بوركيني

اعترافات محجبة

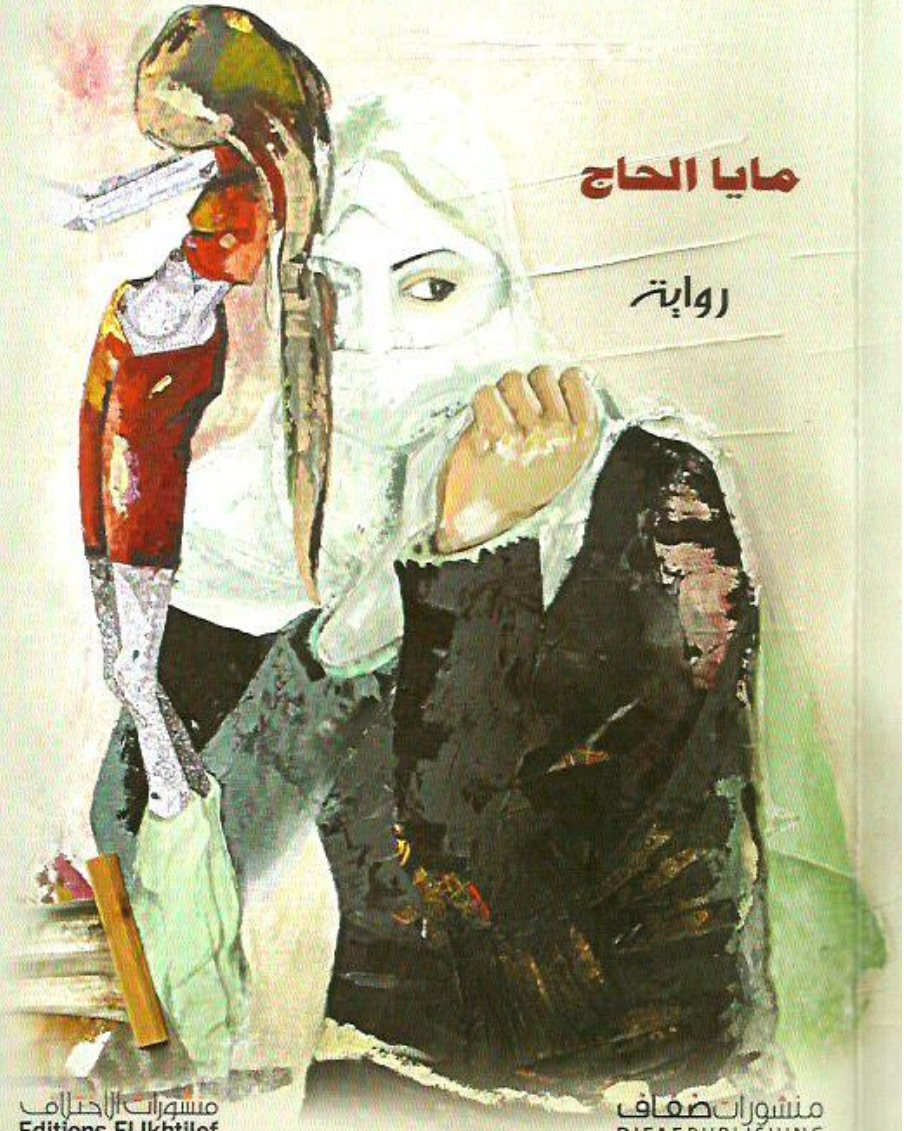

مايا الحاج

رواية

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

بوركيني

بوركيني

رواية

مايا الحاج

منشورات الاختلاف
Editions EHkhtilef

منشورات ضفاف
DIFAFPUBLISHING

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-02-1071-4

جميع الحقوق محفوظة

منشورات الاختلاف
Editions EHkhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAFPUBLISHING
هاتف الرياض: 966509337722+
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

لوحة الغلاف والتصميم للفنانة مايا حيدر

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

إلى شادي...

المحتويات

في المحترف..... 9
في المقهى..... 21
في غرفتي..... 65
في اليوم التالي..... 111
في المحترف..... 127
اليوم الأخير..... 141
في المعرض..... 153

في المحترف

يتسلّل نور الظهيرة من بين الستائر، فيوقظني. جسدي متكوّر على نفسه، كأنّه بحجم الكرسي الذي جلست عليه. أفتح عينيّ ببطء. أحرّك كتفيّ اللتين أثقلهما الإرهاق. يداي يابستان كجزعين من خشب. يبدو أنني غفوت من غير أن أشعر، فضَغَط ثقلي على يديّ حتى فقدت إحساسي بهما. لا أقوى على تحريكهما، ولا أرغب في المحاولة. لا أفكّر في النهوض عن الكرسي. شعور غريب يتملكني. جسدي متوعّك. وانكفائي على نفسي في هذه الصورة يُشبه انكفاءة معظم النساء اللواتي أرسمهن.

أتجمّع على ذاتي مثل قبضة. قد تكون انحناءتي مؤلمة. لكنّه إيلامٌ جسديٌّ لا يخلو من لذّة، ولو عابرة...

لا أشعر بجسدي. كلّ ما فيّ مُتصلّب، إلاّ عينيّ. وهذا يكفيني. أحدّق بهما في زوايا الغرفة. أقلام مُهملة على الطاولة، وأوراق مبعثرة على الأرض. لوحات كثيرة تسكنها وجوه وأطياف وأجساد أنثوية طريّة. فتيات ونساء يتجاورن، لا يخجلن بعريهن وكأنهن يعرفن أنّ هذا المكان لهنّ. ربما يتهامسن، لكنني لا أسمع سوى صوت الصمت. لا أدري إن كانت أذناي قد صُمتّا كما كلّ شيء فيّ. الموسيقى الهادئة التي كنت أسمعها قبل أن أغرق في غفوتي صمتت هي أيضاً.

ما هذا السكون كلّه؟ أين ضجة الظهيرة في هذه المدينة؟ من أين تسلّل كلّ هذا الهدوء؟ أذكر أنني في المحترف هنا منذ الساعة الخامسة فجراً، لكنّ الصمت الذي يسود المكان الآن هو أعمق من ذي قبل. لا أدري ماذا حصل... هل غفوت فعلاً أم انخطفت؟ هل كنت غارقة في حلم أم في ما يُشبه الموت؟ لا أعرف. أحسّ كأنما غبت عن نفسي وبُعثت من جديد. بُعثت بجسد غير جسدي، وروح غير روحي.

هذه الصحوة الثقيلة من غفوة الظهيرة لا يُمكن أن تكون إلاّ صحوة ميّ أنا. من العالم الغريب الذي يحتويني. من بعض الأجساد العارية التي تسكنني. أجساد أرسمها بأسلوب التظليل بينما أعيش أنا بظلّ جسدي.

هذا النور الخفيف الذي اخترق الستائر والشبابيك نصف المغلقة وصل إليّ ليُوقظني من سبات عميق. يقظتي كأنّها ولادة جديدة، فيها دهشة وغربة وألم. وإنّه لشيء عجيب أن يشهد المرء لحظات ولادته. أن يخرج من جسده هو. أن يشعر بألمه فلا يصرخ، ويتوجّس غربته فلا يبكي. أن يحسّ بأنّه هو الوالدة، وهو المولود.

أحدّق في اللوحات التي تملأ المكان. أتذكّر أنني أنا من رسمها. أبتسم، إلاّ أنّ وجهي المُخدّر يظلّ عاجزاً عن التعبير. يداي أيضاً مخدّرتان. هل يُمكن أن أرسم بهما ثانية؟ لا يهمّ. إنّ عين الرسام هي يده! هكذا يقول "مانيه" وهذا هو المهم. أنا أعشق مدرسته الانطباعية، ومثله، لا شيء يهمني أكثر من العينين. وها أنا الآن، لحسن الحظّ، أفقد إحساسي بكلّ حواسي، ما عدا بصري.

عيناي تُفتّشان المكان. أبحث عن شيء لا أعرف ما هو. إلاّ أنّ عدم إيجاده يُضاعف قلقي. أكتشف فجأة أنّ لوحاتي تُحدّق فيّ. وكأنّ بطلاتها يُخاطبنني. يتوجّهن إليّ قائلات إنني أحسست أخيراً بما يشعرن به منذ زمن طويل. قلقهنّ تسرّب إليّ. وربما أُصبت بعدوى

الإغتراب الذي يتملكهن. فأنا رسمت معظمهنّ شبه عاريات، وإنما على عفّة ونقاء. إنّ ثقل الوجود يُنهك أجسادهن النديّة. القليل الذي يبدو من وجوه بعضهنّ يُصوّر رغبتهنّ في تأكيد وجودهنّ في الحياة نفسها، لا بظلّها.

أجساد النساء، أو الأصحّ الفتيات، شبه طفولية. لكنّ أفكارهنّ ناضجة. يحاولن الخروج من ظلّ يُضيّق عليهنّ الخِناق. وضعياتهن المختلفة تعكس تخبطهن في عالم مجهول لم يفلحن في التكيّف معه بعد.

أدقّق في لوحة "دوران" تلفّ الفتاة جسدها بمنشفة، وتقف مترنحة أمام سرير صغير، كأنها استفاقت لتوّها منتشية بعد علاقة حميمة. لكنّ نظرة عينيها غير الثابتة تومئ إلى أنّ حركة جسدها المهتزّة ليس سببها النشوة، أو حتى السّكر، بل ضياع وإرهاق بعد جري طويل في متاهات لم تودِ بها إلاّ نحو المجهول.

أراقبهن... أراهنّ متشابهات في اختلافهن. جميعهن جميلات، لكنّ جمالهنّ متشنّج. جمال مضطرب يبثّ فيّ القلق، ويدفعني إلى طرح أبسط الأسئلة وأصعبها، عن ذاتي وجسدي ووجودي...

ضوء فيروزي يُبهر عينيّ فجأة. غشاوة تُعميني، لا أدري أين مصدرها. أزيح وجهي عن مصدر الضوء. أتلمّس بيديّ الثقيلتين ما بجانبي. ومن ثمّ أنتبه... إنّه هاتفي. لم أسمعه يرنّ، ولم أكن أسمع شيئاً. أضغط زر الإجابة، فيتهادى صوته إلى أذني وكأنه نسمة هواء هبطت عليّ من الجنّة.

منذ أيّام لم يُكلّمني خلال النهار. فقط إتصال واحد قبل النوم. عليه أن ينجز أعماله قبل عطلته القضائية السنوية، وعليّ أن أحضّر تفاصيل افتتاح معرضي الفردي الأوّل. اتصاله الآن أتى في وقته المناسب

تماماً. يقول إنّه يريد أن يراني لسببين. أوّلاً لأنّه مشتاق إليّ، والثاني لكي ينتشلني قليلاً من صخب عمل غارقة فيه منذ أسابيع. لا مجال للرفض. أنا فعلاً أحتاج أن أكون معه.

"المكان اخترته بنفسي...إنّه المقهى البحري"، يقول لي.

البحر، هذا ما أحتاجه فعلاً. فصل الصيف يكاد ينتهي ولم أقصد البحر بعد. الشمس لم تُلوّن بشرتي. مازلت بيضاء كشبح، وجسدي متعطّش إلى الضوء. منذ مدّة وأنا أعيش داخل هذا المرسم الصغير، وكم أشتاق إلى أن أرى النور، وأشمّ رائحة الموج. فأنا لشدّة انهماكي بالمعرض، أجّلت كلّ شيء إلى ما بعد انتهائه.

جسدي يستعيد ليونته، وينحلّ تشنّجه. نصف ساعة ويمرّ بي كي نذهب معاً إلى المكان الذي اختاره بنفسه، مع أنّه غالباً ما يترك لي حريّة اختيار الأمكنة التي نقصدها. عليّ أن أصعد إلى المنزل حتى أرتدي ملابس مناسبة قبل أن يصل.

أغلق باب المحترف الذي يقبع في الطبقة السفلى من عمارتنا الصغيرة، وأصعد بسرعة إلى منزلنا. أدخل غرفتي، أحدّق في المرآة، فكأنني أصادف وجهي لأول مرة. أتأمّله وأتملاّه، فيتضّح لي شحوبه وتعبه. لمسة خفيفة من الماكياج تكفيني حتى يستعيد وجهي رونقه.

أرتدي قميصا زهري اللون بلا أكمام، وسروالا من الجينز الغامق. أفرد شعري الذي يضيع لونه بين البنيّ والأحمر، وهو لون الخرّوب أو الخرنوب كما كانت تقول لي جدتي التي كانت تعشق الخرّوب الطازج، عصيراً ودبساً. ومنها أخذت تسمية هذا اللون الذي عشقته وصرت أستخدمه كلونٍ أساسي في لوحاتي.

أفرد شعري فتتدلّى خصلة منه تُغطّي الطرف الأيمن من وجهي. أبدو جميلة، ولم تعد تظهر عليّ آثار تعب أو إرهاق.

الهاتف يرنّ، لا بدّ أنّه وصل. عليّ أن أحضّر نفسي للخروج. انتعل حذائي المسطّح، إذ لا أقوى على الوقوف بالكعب العالي بسبب ما أعانيه من أوجاع في العظم والجسد من وطأة عملي كمدرّسة رسم في "المحترف الفني للهواة والمبتدئين، وفي مرسمي الخاص أيضاً.

أرتدي سترة طويلة بأكمام، تُغطّي ردفيّ وما بقيَ مكشوفاً من جسدي. ومن ثمّ أختار المنديل الكحلي المُوشّى بورود زهرية حتى أضعه على رأسي. أحمل المنديل بيدي وأتلمّس شعري باليد الأخرى. أنظر إلى وجهي في المرآة، فأراه وجهاً من وجوه موديلياني الرقيقة.

شعري الخرنوبي الناعم يُضفي عليه أنوثة وجمالاً واضحين. لم أحدّق في وجهي منذ فترة بعيدة. إنّه يزداد مع الأيام براءة وطفولة. كنت أعتقد أنني كبرت كثيراً، لكنّ ما أراه الآن أمامي يوحي بالعكس. صرت أشبه فتيات لوحاتي. أو أنني كنت أرسمهن على صورتي من غير أن أدري. لا أعرف. لكنّ هذا الوجه لم أرَه منذ زمن. حياتي أصبحت مثل حلبة سباق، السرعة هي ركيزتها. آكل بسرعة، أمشي بسرعة، أعمل بسرعة، أفكر بسرعة، أتكلّم بسرعة... لا يتوقف الزمن إلاّ عندما أدخل محترفي حيث لا ساعة، ولا مرآة. المرسم هو عالمي الذي أفعل فيه كلّ شيء بمزاج، وِفق إيقاع أحدّده أنا.

أمّا الآن فأنا أيضاً على عجلة من أمري. هاتفي يرنّ من جديد... لن أردّ، لا وقت لديّ. عليّ أن أواصل ارتداء ملابسي وأخرج. أتعجّل في وضع الإيشارب على رأسي، أحاول أن أهرب من النظر إلى المرآة، لكنني لا أقوى.

أريد أن أتأكّد من أنّ وجهي مازال جميلاً حتى بعد أن يُبدّل المنديل ملامحه. فأنظر إليه مجدداً. هو وجه آخر يسكن المرآة. أنا لا أتوهّم. إنها الحقيقة. إنني أعرف الناس بالوجوه من شدّة شغفي بها، وأقول إنّ هذا

الوجه ليس لي. فأنا تربطني بالوجه علاقة خاصة تجعلني أشعر في أوقات كثيرة بأنّ ثمة صلة قرابة تجمعني بوجوه معينة، قد لا أصادفها في الواقع، وإنما في لوحات وصور وروايات. بينما تربطني بالجسد علاقة ملتبسة. أحسّ أحياناً أنني أضعته وضاعت معه ذكراه، حتى صرت أشعر كأنما جسدي ليس لي. إلاّ أنّ الله عوّضني خيراً بأن منحني القدرة على رسم أجساد الأخريات، بحرفية وشغف. وأنا أعرف جيداً أنّ جسدي بعد احتجابه، زاد معنى حضوره في حياتي. فصرت أرسم أجساداً بديلة عنه. أرسمها وكأنّ جسدي هو الذي يُملي عليّ ما أرسمه.

رسم الأجساد صار وحده الجسر الذي يصلني بالعالم، وبذاتي. هكذا، أضحى الرسم هو حضور الجسد وغيابه في آن واحد. الجسد وحده صار يُلهمني، ويُغريني. أضحت للجسد معانٍ أخرى لم أكن أنتبه لها. صرت أرى الأجساد كاللغات، لكلٍّ منها جمالياتها وقواعدها وخطوطها واستثناءاتها...

عندما وضعت الحجاب أول مرة لم أكن أعرف السبب الذي دفعني نحو هذا الفعل. هل هو الإيمان؟ شخصيتي المغامِرة؟ حبّ التخفّي والتلطّي وراء أجساد أخرى؟ لا أعرف، ولم أكن أعرف شيئاً عن فكرة الحجاب أصلاً.

التجربة كانت غريبة، لكنني أظهرت حماسة لاختبارها. لم أكن أفهم معنى أن تُغطّي الأنثى شعرها، لكنني لم أكن يوماً من هؤلاء الأشخاص الذين يستخفون بما لا يستطيعون فهمه.

دخلتُ المغامرة بكلّ ما تحمله من مصاعب، وكنت واثقة أنني لن أخرج منها مهزومة. ولكن حتى الآن لا أدري إذا كنت حققت به انتصاراً أم لا!...

أحببت ذاك التناقض بين مظهري وحقيقتي، بين شكلي وعملي، بين خياراتي واهتماماتي. أحياناً كنت أحبّ أن أرصد تلك الصدمة التي أخلّفها في الآخرين. أفرح لأنني أنا الشخص غير المتوقّع. الرسّامة الفرنكوفونية المثقفة، والمحجبّة!...

* * *

مذ كنت صغيرة، أردت أن أكون مختلفة عن الأخريات. كنت أسعى إلى الاختلاف عن غيري في كلّ شيء. فكرتُ أنّ الرسم سيجعلني متميزة، لكنّ الأمر لم يكن بهذه السهولة. والدتي عرفت كيف تنمّي في كلّ واحدة منّا- شقيقتيّ وأنا- موهبتها الفريدة حتى لا تكون واحدتنا أكثر تميّزاً عن الأخرى.

فشقيقتي الكبرى تكتب الشعر، والوسطى تعزف على البيانو، وأنا أرسم. هذا ما أرادته والدتي، أن تكون أمّاً لثلاث بنات متفوقات في مدارسهن ومتألقات في مواهبهن أيضاً.

كانت أمي تستمتع بدورها كأم. تُتقن هذا الدور الذي لا أظنّ أنّه يليق بأحد أكثر منها. حضورها كان طاغياً في المنزل. وبفضلها، لم تكن أيّ واحدة منّا أقلّ أو أفضل من الأخرى في شيء. هي دعمت مواهبنا وكرّست ثقتنا بأنفسنا كأنّها خبيرة في بناء الشخصيات وإدارتها. أمّا والدي فكان فخوراً لأنّه أب لثلاث بنات جميلات. هو من الرجال الذين يعشقون الجمال، ويُبالغون في الإهتمام بمظهرهم. إنه لا يحبّ شيئاً أكثر من الترتيب والأناقة والرهافة. ومن أجله فقط اعتادت أمي أن تكون داخل المنزل كما تكون خارجه، أنيقة ومرتبة. ولطالما أبهرتني أمي بقدرتها على تنظيم حياتها بين عملها ومواظبتها على القراءة ومتابعتها لتفاصيل حياتنا واهتمامها بأناقتها وجمالها.

عقدة شعرها المجدولة لا تتغيّر صباحاً ومساءً، كأنّها تنام وتصحو بها من غير أن تتأثّر تسريحتها الأنيقة. الأقراط الماسية الصغيرة تلتمع دوماً في أذنيها. قمصانها الحرير الملونة غالباً ما تُزيّنها ببروش صغير من ماركات عالمية معروفة. ولا تتخلّى عن سكربينتها العالية الكعب إلاّ في ما ندر. كنت أظنّ أناقة أمّي الدائمة شغفاً لديها، وإلاّ لما تمكنت من أن تبذل كلّ هذا المجهود أمام المرآة يومياً، بالرغم من انشغالاتها الكثيرة. لكنّ مشاكلها المستمرّة مع والدي جعلتني أفهم مع الأيّام أنّ هذه المبالغة في إبراز أناقتها، وهي الأمّ المثقفة والعاملة، ليست سوى تدابير وقائية للحدّ من نزوات أبي وملاحقته المستمرّة للجميلات. أو ربما لإثبات أنوثتها أمام نفسها بعد كلّ مغامرات والدي النسائية، التي كانت تعلم بها، على رغم تكتّم أبي الشديد. في البداية، لم أكن أعلم أنّ النساء هنّ سبب مشجارات والديّ التي كانت تمنعنا في ليالٍ طويلة من الإستغراق في النوم. ومع أنّ أمي جهدت في أن تتستّر على مشاكلها معه، وعملت على تفادي الدخول في مشادّات كلامية معه أمامنا، ما استطاعت أن تُخفي عنّا حقيقة العلاقة المتوترة بينها وبين أبي. أمّا هو، فلم يكن يولي الأمر اهتماماً كبيراً، بل كان يُلاطفها دوماً أمامنا ويتودّد إليها مُظهراً لها حبّه.

لم أتصوّر يوماً أنّ رجلاً يُمكن أن يخون زوجةً بمواصفات أمّي، بذكائها وصلابتها وأناقتها، إلى أن سمعت شهقاتها مرّة وهي تبكي ليلاً. لسنوات طويلة ظننتُ أنّ أمّي امرأة لا تبكي. لهذا كانت دموعها المنهمرة سراً في عتمة غرفتها ثقيلة جداً على قلبي. سمعتها تبكي وحيدة في غرفتها وهي تعلم أنّ والدي يُعاشر امرأة سواها، وفي ظنّه أنّها لا تعلم بالأمر. كان يعتقد أنّها تشكّ فقط بوفائه لها. وقد فاته أنّ امرأة مثل أمي قادرة بإحساسها الأنثوي أن تكشف خيانته لها، أن تشمّ رائحة هذه الخيانة.

مشهدٌ قاسٍ أن يرى الأبناء أمّهم باكية، مكسورةً، حزينة... لكنّ الأقسى منه حين يكتشفون أنّ والدهم هو من يُبكيها، وهو مصدر أحزانها وآلامها.

دموع أمي الصامتة غالباً لم تنزع حبّ أبي من قلبي، وإنما أحدثت بلا شكّ صدمة لديّ، مع أنني أعلم أنّ خيانته لها ناجمة عن نزوة لديه. فهو لم يكن يحبّ سواها، لكنه لم يكن يمنع نفسه من خوض مغامراته الصغيرة.

هذه الدموع ربما جعلتني أتخفّف من اهتمامي بأنوثتي. كأنّ تجربة والديّ علّمتني أنّ أناقة المرأة وجمالها لا يُساويان شيئاً في حسابات رجل من الصعب أن يكتفي بامرأة واحدة.

أبي ليس قاسياً، ولا أظنّه تقصّد يوماً إيذاء أمّي أو إهانتها. كلّ ما في الأمر أنّه رجل يضعف أمام فتنة الجمال والأنوثة، لا سيّما أنّه "الجنتلمان" الذي تنجذب إليه النسوة. وأمي كانت تعلم في قرارة نفسها أنّ زوجها يُحبّها ولا يُفضّل امرأة عليها، لولا عجزه عن مقاومة نزواته العابرة.

فكانت كلّما ينشغل عنها بنساء أخريات، وبالسرّ كعادته، تنشغل هي بتجميل نفسها، من غير أن تُقصّر يوماً في واجباتها معنا. وأظنّها لم تكن تُحبّذ فكرة الإنفصال عنه واللجوء إلى الطلاق، لأنّها تُحبّه مثلما تُحبنا، وتُقدّس الأسرة وتخشى عليها أكثر ممّا على نفسها.

لكنّ أبي برغم زحمة أعماله وأسفاره وعلاقاته، لم يغِب عن حياتنا. نحن، بناته الثلاث، كنّا بالنسبة إليه عرائسه الملوّنة، وأنا كنت دميته الصغيرة ذات الشعر "الأحمر" ولهذا كان، ومازال، يحبّ أن يُناديني باالفرنسية ma p'tite rose، أو وردتي الصغيرة.

اختلافاتنا البسيطة، نحن الشقيقات، لم تكن تُحدث الفرق، فبقينا ثلاث بنات متشابهات في نظر والدينا، والناس.

أمّا أنا، فكنت الوحيدة التي لم تكن راضية بذلك. كنت أبحث عن تفرّدي في كلّ شيء. لا أريد أن أكون مثل أحد. ولا حتى مثل شقيقتيّ. كنت أريد أن يتكلّموا عني بصيغة الفرد، لا الجمع. كأن يقولوا مثلاً هذه الفتاة لا تُشبه شقيقتيها، إنها أقلّ جمالاً منهما، أو أكثر، لا فرق. وكم حلمت بهذه الجملة خلال أزمة المراهقة. وفي كلّ مرّة كان يثني الناس فيها على حسننا، نحن البنات، كان والدي ينفش ريشه كديك رومي، فخوراً بنا، وتنظر أمّي إليه معتدّة بنفسها، كأنّها هي صاحبة الفضل في ذلك. كنت أشعر بامتعاض كبير، كأنني أرفضني أو أنني أبحث عن شيء ما لا أعرفه. عن شيء يصنع لي هويتي الخاصة.

الهاتف يرنّ بدون توقف...

رنين الهاتف يقطع حبل أفكاري ويُعيدني إلى وجهي الذي لا يُشبه وجهي البتّة. أنزع المنديل عن رأسي، فيعود وجهي إلى طبيعته. أفكّر. هل أخرج هكذا؟ هل أفعلها؟ عجيب كيف تُراودني أفكار خطيرة إلى هذا الحدّ في مثل هذا الوقت الضيّق؟

أفكّر... تُرى ماذا سيقولون عنّي؟ أهلي سيفرحون طبعاً. هم طالما حاولوا إقناعي بالعدول عن هذه الخطوة التي جعلتني أبدو غريبة عنهم. وأنا كنت غالباً ما أجيبهم: "الحجاب الذي لم أضعه لأجل أحد، لن أخلعه من أجل أحد"

أبي الذي كان أكثر ما يُحبّ فيّ شعري، لم يتقبّل فكرة أن أغطّيه وأن أحجب أنوثتي وأنزع منه لقب "أبو البنات الجميلات"

لكنّ عنادي جعلهم يستسلمون جميعاً لرغبتي. فجاءت الموافقة على مضض. لم أسمع يوماً عبارة يعتاد الناس قولها للمحجبّة حديثاً: "مبروك الحجاب". بل كلّ من حولي كان مُندهشاً من فعل لا يليق بفتاة مثلي.

وأنا لم أقتنع يوماً بهذه الأحكام المسبقة، لم أكن أعرف لماذا يُصنفون الحجاب على أنّه كود اجتماعي يشير إلى فئة من البسطاء والجهلاء والرجعيين. "أنت شابة تعيشين وسط هذا العالم، فلماذا تختارين الهامش مكاناً لك؟" لم يتمكنّوا من أن يروا في ذاك الزيّ المحتشم أكثر من هامش، أكثر من ظلّ حياة.

وكنت إذا ذهبت إلى مكانٍ ما أشعر بقلّة اهتمام الناس بي، كأنني دخيلة على عالمهم، أو بالأحرى عالمهن. ولكن ما إن أنطق جملة بالفرنسية وبطلاقة حتى تتغيّر النظرة إليّ. كأنّ الإنسان في هذا العالم لا يكتسب قيمته إلاّ عندما يتشبّه بالآخر، في كلامه وسلوكه وملابسه.

أمّا هو، فقد تعرّف إليّ بهذه الهيئة. تُرى كيف سيكون ردّ فعله إن نزلت الآن من دون حجابي؟ هل ستكون صدمة له أم مفاجأة جميلة؟ لا أعرف. هل أترك بيتي بشعري الناعم المُفرد بعد خمس سنوات من حجبه لسبب لا أعرفه، أم أنني أضع المنديل الكحلي المزدان بالورود؟ هل أخرج بين الناس بالجسد المتخفّف من ثقل ملابسه أم أُبقي على احتشامي؟ هل أظهر بوجهي الموديلياني الرقيق أم بوجهي الشاحب والمُقفل؟ لا أدري. أنا فعلاً ضائعة.

كنت أعرف أنّ هذه اللحظة ستأتي يوماً ما، وإنما ليس الآن. قبل أسبوع واحد من المعرض!...

أضع المنديل على رأسي وأنزعه، ثمّ أضعه وأنزعه. أراقب قسمات وجهي السريعة في المرآة. إنها تتبدّل، بل تصل إلى حدّ التناقض في أقلّ من ثانية. من المرح إلى الحزم، من البراءة إلى الجديّة، من الجاذبية إلى اللاتعبير... أضع الحجاب وأنزعه على صوت رنين الهاتف، لكنني أقرّر أخيراً ألاّ أخلعه.

لن أكرّر الحركة ذاتها حتى بزوغ فجر يوم جديد. إنّه ينتظرني، وعليّ أن أغادر الآن. لن أبدأ دورة حياة جديدة في لحظة توتّر كهذه! سوف أخرج به!

أُبقي المنديل على رأسي. أقفل باب الغرفة ورائي، وأخرج من المنزل. أخرج، كما كلّ يوم...

في المقهى

مالت برأسها قليلاً إلى اليسار. أمسكت بأطراف شعرها الأسود الكثيف. وبحركة سريعة قلبته إلى جهة اليمين... أغمضت جفنيها نصف إغماضة ثم فتحتهما بجرأة وأرسلت إليه نظرة ثابتة جعلته يرتبك حيرةً.

عيناه النهمتان تتجهّان إلى المكان المُقابل لنا، حيث تجلس هي. يرتبك، لكنّه يحاول أن يُخفي ارتباكه. هكذا هو، يحاول دائماً أن يُبدي عكس ما يضمر. يُبادلها نظراتها كأنّه يتفحّصها. لا شكّ أنّها أعجبته. هي لا تُشبهني البتة، بل إنّها نقيضي. وهذا ما يسعى إليه. يُشبع عينيه بأجسادهنّ المكشوفة، ويُلهب خياله بجسدي الممنوع. امرأة واحدة لا تكفي رجلاً. للواقع امرأة، وللخيال أخرى. إنما ليسوا جميعهم صنفاً واحداً، فالرجال كالأفعال، بعضها لازم وبعضها الآخر متعدٍّ.

لكنّ جسد المرأة مكشوفاً يُثير الرجل، وجسدها مُحتجباً يُغريه أيضاً. فالجسد الذي لا يكون في مُتناول الرجل يهزمه. وعندها قد يغدو جاهزاً لأن يفعل ما لا يطيقه عقله من أجل أن يحصل عليه. وهذا ما أخافه! أن يكون ارتبط بي لاكتشافي. لاكتشاف المرأة السريّة التي هي أنا. أخاف أن يكون اعتقد فضوله حبّاً. هو لم يقُل شيئاً عن هذا الأمر. لكنّ هذا ما أراه في عينيه. في نظراته إليها. في ارتباكه أحياناً. كنت أشعر منذ

البداية أنّ غموضي هو أوّل ما شدّه إليّ. فأنا امرأة لا أشبه النساء اللواتي مررن في حياته. ولا أدري إن كنت امرأة أحبّها أم مغامرة أحبّ أن يخوضها بما فيها من غرابة واختلاف!...

ولكن كيف لمغامرة أن تسوق صاحبها إلى أكثر الخطوات جدية في حياته؟ لقد خطبني، وسوف نتزوج الربيع المقبل. فهل يُمكن أن يكون ارتبط بي لمجرّد أنه أراد أن يكتشف جمالاً مختبئاً فيّ؟ يا إلهي، المرأة المُستيقظة فيّ تأخذني منه الآن، ومنها. إنها تنهض من مكانها وتتوجه نحونا. ماذا تريد؟ لا، لا يُعقل أن تكون وقحة إلى هذا الحدّ! تقترب منه وتبتسم له ابتسامة فاضحة. يبدو كأنها تعرفه. إنها تعرفه حقاً! يقف، يُسلّم عليها، فتقترب منه أكثر حتى تكاد تلتصق به، ومن ثمّ تُقبّله ثلاثاً على خدّيه. أكاد أختنق. من هي هذه المرأة؟ يمدّ يده نحوي كأنما ليُعرّفها إليّ، لكنّها لا تنظر صوبي، تهزّ رأسها وتبتسم ابتسامة مُصطنعة. تُقاطعه كما لو أنها ترفض أن تتعرّف إليّ. تسأله عن أحواله وأهله. تعرفه جيّداً إذاً! هي ليست إحدى قريباته طبعاً. فمن تراها تكون؟ ربما هي إحدى زميلات الدراسة في الجامعة. لكنّ ارتباكه أمامها يعني أنّها كانت أكثر من زميلة له.

هل تكون هي؟ هل هي صديقته السابقة التي كان يتهرّب من أن يأتي على ذكر اسمها أمامي؟ لا، تلك تزوجت وسافرت إلى بلد آخر حيث تعيش مع زوجها، رجل الأعمال الثري. فأنا علمتُ منه في المرّة الوحيدة التي كلّمني عنها، أنّها بعد مشكلة حدثت بينهما، تركته وارتبطت برجل ثريّ يكبرها سنّاً. وكم كنت أتمنى أن أراها، أن أعرف شكل المرأة التي أحبّها، أن أرى جسدها الذي لامسه وقبّله. أصدقاؤه كانوا يعلمون أنهما عاشا قصة حبّ عاصفة، واختبرا تجربة "المُساكنة" لأكثر من عامين. ومع أنّ هذه الفكرة لم تكن رائجة هنا قبل سنوات، لكنّ من

يعرفها لم يكن يستغرب جرأتها. فهي متحرّرة جداً، وربما هذا النوع من النساء كان يستهويه. هذا ما عرفته من أحد أصدقائه، وهذا ما يزيدني جنوناً. لماذا اختارني أنا إذاً؟ أنا المرأة المحجبة!...

إنهما واقفان يتحدثان، وأنا جالسة أنظر إليهما، وأشعر بأنني مسحوقة بينهما. أعتقد أنها هي، لكنني غير متأكدّة. هي مسألة إحساس فقط، فأنا لا أعرف شكلها. وأذكر أنني طلبت منه مراراً أن يصفها لي، أو أن يُريني صورتها، لكنّه كان يرفض رفضاً قاطعاً. "لا صور لها معي، أقسم لك أنّها ما عادت تعنيني ويجب أن لا تعني لكِ شيئاً أيضاً" وفي آخر مرّة طلبت منه وصفاً دقيقاً لشكلها، هدّدني بمغادرة المطعم الذي كنّا نتواجد فيه.

هذا الأمر كان يُزعجني. أسلوبه في التعاطي مع ماضيه كان يُضايقني، يُشعرني بأنّه مازال مُغرماً بها. فالإنسان الذي لا يتصالح مع ماضيه يعني أنّه مازال يسكنه... ولو أنّه نسيها تماماً لما كان ليهرب من الحديث عنها دوماً...

تعود هي إلى طاولتها. ويجلس هو في مكانه إلى جانبي.

أحسّ بالحرارة تنبعث من خدّيه. يحاول أن يُكمل حديثه معي كأنّ شيئاً لم يحصل. لا أردّ. فقط أنظر في عينيه. ولكن من الصعب أن أرى في عينيه الحقيقة التي أتلهّف إلى معرفتها. إنّه محامٍ، ومهنته علّمته كيف يتلاعب بكلماته ونظراته ومشاعره. يصمت، فأسأله "إنّها هي؟" "نعم"، يُجيبني. اعتقدت أنّه سيُراوغ، لكنّه أجابني مباشرة بما لم أكن أرغب في سماعه. لم أكن أتوقعها بهذا الجمال، وهذه الأنوثة. ماذا أفعل؟ هل أبقى هنا؟ أم أنجو به من هذا المكان اللعين؟

***

المرأة التي كنت أتمنى لو أنني أرى صورتها فقط، تظهر أمامي فجأة. أتأملّها، وأسأل نفسي: "أيُعقل أن يحبّ رجل واحد امرأتين مختلفتين إلى هذا الحدّ؟" لا شيء فيها يُشبهني. لا شكلها، ولا روحها. فمن فرط أنوثتها، أبدو أمامها طفلة لم تنمُ بعد. يا ليتني لم أرَها!... لماذا اختارني أنا بعد علاقة مع امرأة هي نقيضي؟ هل كنت في حياته مجرّد وسيلة ينتقم فيها من ذاته؟ لا أدري. أعتقد أنّ انفصاله عنها أوجعه كثيراً، وجرحه يبدو لي عميقاً في كلّ مرة يتهرّب فيها منها، من الحديث عنها. وربما لهذا السبب، اختار امرأة لا تُذكّره بها البتّة... أذكر أنّه طلب منّي مرّة ألاّ أقارن نفسي بها، "أنتِ فنانة مرهفة الحسّ، وهي ماديّة لا شيء يهمها أكثر من الماركات والمظاهر الإجتماعية"

كنت أغار منها، من قبل أن أراها. فهو أوّل رجل أحببته، ومع أنّه يكبرني بستّ سنوات فقط، أشعر أمامه بأنني مراهقة مولعة به، ولا أحتمل فكرة أن يكون مع امرأة أخرى غيري. حتى شخصيته التي هي شخصية محامٍ ورجل قانون، والتي تختلف عن شخصيتي، لم تحل دون هيامي به. بل إنّ الإختلاف بيننا جعل علاقتي به تقوى أكثر فأكثر.

أنظر إليها مجدداً. طريقة جلوسها، نظراتها، حديثها... السذاجة بادية عليها فعلاً. أنا لستُ عرّافة، لكنني عالمة بالأجساد. والسذاجة لها أيضاً أشكال تُعرف بها. هي تنفخ شفتيها إلى الأمام وتلوي عُنقها كبجعة متصنعة ومتعجرفة. تتصرّف على أساس أنّها جميلة فقط. جمالها ليس فطرياً، وأنا لا أفضّل من الجمال سوى ما كان نادياً كالبراعم اليانعة.

لا شكّ أنّها تنتظر الفرصة كي تتأملني. فأنا خطيبة الرجل الذي أحبّته وقضت معه أجمل الأيّام والذكريات، لكنّها لا تراني. ربما لا ترى أحداً سواه.

إنها مزهوّة بنفسها وواثقة من أنها قادرة على استعادته، إن هي أرادت.

"هل مازالت متزوجة؟" أسأله بصوت تخنقه الغيرة، وأخاف أن أسمع جواباً بالنفي. يصمت ويرتشف من فنجان القهوة رشفةً، كأنّه يُفكّر في الجواب، أو يهرب منه ربما. هي الآن مُطلقّة إذاً؟ يهز برأسه، ويُحاول أن يُغيّر الحديث، فيسألني عن تفاصيل التحضير للمعرض. أشعر بأنّه يُقلّل من شأن أمر هو في غاية الأهمية بالنسبة إليه.

يا إلهي... لا مانع لديها الآن من أن تستردّ الأيّام الخوالي. ماذا أفعل؟! أشعر بالحرارة تهبّ داخل جسدي. لماذا عدتِ الآن؟ أقول لها في قلبي. لا أدري إن كان ممكناً أن يرفضها مع كلّ ما تُظهره من جسد مُغرٍ ويبقى عُذرياً لأجلي!...أشعر بالنار تسري في عروقي. هو اليوم من اختار مكان اللقاء. فهل يُعقل أن يكون هذا اللقاء مصادفة؟ لا لن أسمح لأفكاري أن تُدوّخني. سوف أسأله...

"هل كنت تعرف أنّها عادت إلى هنا مُطلقّة؟" يزمّ شفتيه وينظر إليّ من طرف عينه كأنّه يضع بذلك حدّاً لأسئلة أخرى لن تنتهي. يُحاول أن يُكمل حديثنا عن المعرض، فيسألني عن العدد النهائي للوحات. أجيبه من دون تركيز، وبلامبالاة. كأنني نسيت أنني رسامة تُحضّر لمعرضها الفردي الأوّل، ولم أعد أرى أمامي سوى امرأة خطيرة تلتهم بنظراتها رجلا لم أعشق سواه في حياتي. إنّه حبّي الأول، أنا التي تأخرت في أن تحبّ، لكنّها عندما أحبّت، فإنما بولع وجنون.

***

وجهي مُلتهب وكأنّ حُمّى ضربتني. أحسّ بحرارة في رأسي، وأذنيّ. الحمدلله أنني أغطّي رأسي بمنديل حتى لا تفضح أذناي المحمّرتان أمري.

نظراتها إليه شرسة، كأنّها مازالت ترغب فيه. عيناها تفضحانها، بلا خجل أو حياء... أفكاري مُشوّشة، وأحسّ أنني أفقد سيطرتي على نفسي شيئاً فشيئاً. أشعر بأنني أقف في ساحة معركة أمام غريمة أعرف في قرارة نفسي أنها أقوى مني. لن أكذب على نفسي، عليّ أن أعترف بأنني لا أنافس تلك الأنثى التي تلتهمه بنظراتها الشبقة، وإن كنت أنا من يجلس إلى جهة قلبه.

لا أظنّني أهوى تعذيب نفسي، لكنني أصدّق من يقول إنّ إحساس الإنسان كلّما سما، أضحت مشاعره أكثر اهتزازاً وأكثر تأثراً بالأشياء الصغيرة. ولا أعرف إن كان ما أمرّ به الآن هو في الأصل شيئاً صغيراً أم لا. لكنّ ما أحسه داخلي صعب جداً. أظنّه انتبه إلى غيابي الدماغي عنه، فدخل هو أيضاً في صمت مخيف. لا أدري إن كان يُفكّر بها الآن وهي جالسة أمامه. قد تكون أثارته، فهي جذّابة جداً. إنّها تُشبه نجمته المفضلّة إيفا مانديز. وأنا أذكر جيداً حين سألته مرّة عن المرأة التي يُفضلّ جمالها، فأجابني وقتها من دون أن يُفكّر: إيفا مانديز. حينها لم أكن أعرف أنّها تُشبه حبيبته السابقة. سألت نفسي فقط إن كان يراني جميلة، فالقليل الذي يبدو منّي لا يشي بحقيقة جسدي المكبّل بأقفاله...

عند سؤال الجسد والجمال، أعلم أنني أكون دائماً خارج المعادلة.

هكذا أنا. أكتم أنوثتي وألوذ بصمتي في الوقت الذي أعيش حياتي بحثاً عن الحريّة والجمال. أمضي أيامي بين ألواني لأعيد رسم العالم كما يحلو لي. أحمل ريشتي وأغدق الألوان على لوحات بيضاء بلون الموت، لأبثّ فيها الحياة.

* * *

أنا أقسو على نفسي وأؤذيها. عليّ أن أهرب من كلّ هذه الأفكار الآن. يجب أن أدقّق فيها وأراقب نظراتها وأكشف حقيقة مشاعره تجاهها...

أعقد حاجبيّ، وأزمّ طرفي فمي مثلما أفعل عندما أشرع بالرسم، وأنعم فيها النظر كأنّها امرأة أريد أن أرسمها فعلاً. هي تتحدّث مع فتاة أخرى تجلس بقربها. توشوشها كأنّها تُخبرها شيئاً عنه. أو ربما عنّي، أنا الفتاة الغريبة التي أجلس بجانبه.

أدير نظري عنها حتى لا يُفتضح أمري، وتكتشف ما يُخالجني من مشاعر الغيرة والخوف والقلق.

أتأمّل البحر. أراقب أمواجه التي ترتطم بالصخر وأسأل نفسي لماذا أتى بي إلى هذا المكان؟ هل كان يعرف أنّها موجودة هنا؟ هل اتفقّا؟ هل أراد أن أواجه المرأة التي أموت فضولاً كي أراها؟ هل هي صدفة بحتة أم أنّه أراد أن يُمهّد لي عودة حبيبته القديمة إلى حياته، وربما رغبته في الإنفصال عني؟

الأصوات التي تصرعني تتوقف فجأة، فأستيقظ منّي... أعود إلى وعيي، إلى واقعي، وإليه. أقصد إليها... المرأة الوحيدة التي يُمكن أن أنسى نفسي أمامها وأن أغار منها، تجلس قبالتي.

أغرق في سخطٍ هادئ ومُخيف، إلاّ أنّ صوته الدافئ يخترق أذنيّ. يُكلّمني. ومن عساه يفهم كلمة وعقله محموم؟ لا أقدر على الكلام، ولا حتى السماع. ألاحقها فقط بنظراتي.

تُحدّق في عينيه السوداوين كأنما تُريد أن تغيظني. لا تعيرني انتباهها، لا ترى سواه، كأنما يجلس وحده في المقهى. أإلى هذا الحدّ أنا ضئيلة؟ هل أُصبت بسحرٍ ما وصرت كائنا غير مرئي؟ أم أنني أصلاً غير موجودة؟ هل أنا أنثى من لحم ودم أم أنني مجرّد خرقة مُهملة؟ لا أعرف. بلى، أنا

أعرف. أعرف ما هو حجمي، وما هو خَطَري. لا أحد يراني. أنا لست شيئاً بعيداً عن عالمي ولوحاتي. ومن أنا حتى تتحدّاني امرأة مثلها تضجّ أنوثة وإغراءً؟ فلا أنا امرأة تُشعل غيرة النساء، ولا أنا امرأة تُثير رغبة الرجال!

معي، غالباً ما تُصبح لعبة الإغواء أسهل!...

تائهة أنا في دوّامتي، أحمل "قدري" على رأسي، من غير أن أعلم إلى أين أمضي به، أو إلى أين يمضي بي...

لا أتمكن من التقاط أنفاسي. أعرف أنني أظلم نفسي، وأنني أحاصرها دائماً بأسئلة عقيمة وأتشاجر معها أحياناً من دون أسباب توجب ذلك. لا أعرف ما الذي أصابني اليوم. منذ الصباح وأنا لست كما العادة. لست طبيعية. متشنجة، ومضطربة. إنني أحترق بجحيم أفكاري الآثمة.

وها أنا الآن أتفكّك على نحو يجعلني أبدو مثل هياكل ألبيرتو جياكوميتي. أظنني ضئيلة، متقطعة، مسحوقة... أحتاج الآن أن أثبت وجودي، وجوداً جسدياً. أين المرآة؟ أريدها كي أتأكّد من أنّ تفاصيل وجهي لا تزال في مكانها...

أحسّ أنني لست أنا. لو أنني أحكي لأحد ما أشعر به الآن بسبب غيرتي من امرأة لظنّ أنني ساذجة، أو مجنونة. لكنّ الغيرة ليست وحدها ما يُثير جنوني، إنما ضياعي بين ذواتي التي تُقاتل بعضها بعضاً. ولا أقول هذا لكي أنفي تهمة عني، لأنني أعلم جيداً أنّ الغيرة ليست سمة الضعفاء والأغبياء وقليلي الثقة بأنفسهم، بل إنها إحساس إنساني طبيعي يشتدّ اتقاداً كلّما ارتفع شأن الإنسان أو ازداد إحساسه. ولا شكّ عندي في أنّ غيرة الفنان هي الأشدّ عنفاً وفتكاً لكونه يظنّ للحظات بأنّه "خالق"، يُبدع الجمال ويسحر من خلاله ألباب الناس جميعاً. يعتقد أنّه يعيش في

قمّة لا يُمكن أن تتسّع لأحد غيره. وما أمرّ به الآن سببه غيرة مزدوجة، هي غيرة المرأة التي فيّ، والفنانة. أحسّ أنني أصبحت الآن خارج المكان والزمان، وخارج نفسي أيضاً. كلّ ما أحتاجه الآن هي العودة إلى ذاتي. أن أعود إليّ وأُعيد ثقتي بنفسي. أن أثبت وجودي أمام تلك البلهاء المتجمّلة.

المراااآة..! من أين آتي بواحدة الآن؟ أبحث عن مرآة يد في حقيبتي، لا أجدها. فأنا لست كبقية الفتيات في مثل سنّي. أنا لا أحمل المرايا لأنّني تقشّفت بجسدي وأعلنتها أمام الملأ: مظهري ليس هاجسي... فما الذي أصابني؟

من أين أحظى الآن بمرآة؟ أأدخل الحمام؟ طبعاً لا هل أتركه وحده معها؟ هل يُعقل أن أترك لهما ساحة المعركة خالية؟

* * *

لا أعرف أيّ ضياع أعيشه؟ لا أريد أن أرهق نفسي بهذه الأسئلة. كلّ ما أحتاجه الآن هو مرآة صغيرة! أبحث في الحقيبة كمن يبحث عن عقله... آه، وجدتها!

أتناول علبة البودرة الزهرية من داخل حقيبتي. اخترت هذه الحقيبة من ماركة "إيف سان لوران" ولم أختر هذه الحقيبة عبثاً، وإنما لعلامتها التجارية غير المستهلكة. المظاهر الأنثوية لا تعنيني. لكنّني أحبّ الحقائب الجميلة، وأجد أنها تُضفي أناقة لافتة على المرأة مهما كانت طلّتها بسيطة.

تقصدت أن أشتري حقيبة "ايف سان لوران" وليس من "ماركات" ينتشر تقليدها في السوق مثل "لوي فيتون" و"بربيري" و"شانيل"، لأنّني أُدرك جيداً أنّ من يراني وأنا أحمل مثل هذه الحقائب الباهظة، سيعتقدها

رخيصة ومُقلدة. لماذا؟ لأنني أنا ومثيلاتي لسنا نساء مجتمع... ولأنّ عالم الأناقة لا يليق بنا. نحن في نظرهن لسنا نساء ضوء، نحن لسنا أكثر من نساء ظلّ.

لن أخفي الحقيبة خلف الكرسي. أريد أن أثير انتباهها. إنْ لم يكن بأنوثتي، فبحقيبتي.

علبة البودرة الزهرية في يدي الآن. وحرف Y، علامة الماركة الرفيعة، قُبالتها. أريدها أن تعرف أنني امرأة تحبّ الموضة والحقائب الباهظة الثمن، ككلّ نساء العالم.

أعرف أنني أتصرف كفتاة مراهقة، وكأيّ فتاة عادية وليس كفنانة يضع الكثيرون ثقتهم بها وبموهبتها الفذّة... لكنّ هذه اللئيمة أنستني نفسي!. وهو أيضاً جعلني أشكّك فيه. رأيته ينظر إليها وكأنّه يريدها، يشتهيها.

أفتح علبة البودرة وأنظر في مرآتها الصغيرة. أنظر إليّ من تحت الطاولة حتى لا يراني أحد. فلا يجدر بشخص مثلي أن يأخذ المرآة في وضح النهار ليتأمّل نفسه عبرها.

من المفترض أن أكون زاهدة بجسدي، بأحسن ما لديّ... وبكلّ ما يُثير رغبة الرجال فيّ.

أنظر إلى وجهي. إنّه يبدو أكبر من المرآة التي أخفيتها في كفّي. وجهي كبير وإنما بلا ملامح. كأنني أتلاشى...

الكرسي يغدو فجأة حفرة عميقة انفتحت تحتي. هوّة مُخيفة تشدّني إليها. لا أستطيع أن أنحو بنفسي. أغرق في الفراغ... أغرق وأتخبط فيه وحدي.

إنّه بجانبي، لكنه لا يدري بشيء ممّا أعانيه. وجهي صفحة بيضاء لا لغة فيه، ولا كلمات. وجه بلا معانٍ، مثل قناع من خشب. وجه

هادئ، ومرعب كلوحة مهجورة. هو الهدوء اللامطمئن. أوَليس الهدوء أكثر رعباً من اجتراح العواصف؟

وجهي بلا معانٍ. ولهذا الوجه تسمية جميلة بالإنكليزية لا أذكرها الآن... أسماء وأفكار تزدحم في رأسي. صورة واحدة تلمع فجأة لتُطيح كلّ شيء آخر. كيف اخترقت غاغا المجنونة كلّ هذا الزحام؟ المغنية الغريبة الأطوار تقتحم مخيلتي. ما الذي يُذكرني بها الآن؟ أراها أمامي بفستانها المصنوع من اللحم النيء، تصدح بصوتها الجهوري مردّدة أغنيتها الشهيرة Poker Face.

أربط الصورتين، واحدة بأخرى: الليدي غاغا ووجهي. "بوكر فايس هو الإسم الذي يُطلق على الوجوه اللامعبرة، كوجهي أنا. هذه الأغنية لي. نعم... وجهي الآن لا يقول شيئاً، ولا يعكس حقيقة الصراع الذي يُشعل اضطرابي، ولا الوجع الذي ينخر عظمي.

غثيان مفاجئ يُداهم أعلى معدتي، فيقلبها. لا أعرف إن كان سببه ذاك الفستان "اللحمي المقزّز أم وجهي الذي بات يُشبه شريحة دهن...

أنا فعلاً أتفكّك على نحو يُصيب بالغثيان.

مشاعر متناقضة تجتاحني، ونوبات حرٍّ تنتابني. حبّ، خوف، غيرة، رغبة... انفعالات عجيبة تحرقني. ولا أدري أصلاً إن كنت أحترق بغيرة الفنانة أم المرأة. المهم أنني أحترق، وأتألّم. ففي أحيانٍ كثيرة أحسّ أنني غدوت أستاذةً في إيذاء نفسي وفي الإستمتاع بالتناقضات التي تُسعدني مرّة وتُدمّرني مرّات. فهل أنا أتقصّد فعلاً تعذيب ذاتي حتى يوصلني الألم إلى لذّة السموّ والتجلّي؟

ألتفت نحوه لأرى إن كان يُبادلها النظرات. لكنّه يحمل الهاتف بيده ويلمس الأحرف فتُصدر أصواتاً كقطرات الماء. ربما يتبادلان الرسائل وأنا جالسة كالغبية أصارع نفسي وأكتوي بأفكاري. قد لا يجد الآخرون مبرراً

لكلّ ما أنا عليه الآن، لكنّ أحداً لم يرتبط برجل مثله. كلّ ما يفعله يؤكّد صدق مشاعره تجاهي. فأنا أعرف أنّه يُحبني، لكنّني لم أكتشف بعد الشيء الأهم بالنسبة إليّ، الإخلاص. فالحبّ وحده لا يُطعم خبزاً كما تقول أمي التي تزوجت أبي بعد قصة حب طويلة. فالحب لم يجلب لها راحة البال. وتجربتها مع والدي علّمتها أنّ احترام الزوج وإخلاصه هما أكثر ما يُهمّ المرأة. وأنا قد أملك القوّة والصبر على تحمّل كل عيوب الرجل، إلاّ الخيانة. "النسونجي هي الصفة الوحيدة التي لا أحتملها أبداً. عشق النساء فيه إدمان، تماماً كالخمر والقمار، وتجربة والديّ علّمتني أنّ هذه الخَصلة حينما تتجذر في رجل يصعب أن يتخلّص منها. لكنّ أمّي ذكرت أمامي مرّة أنّ أفضل ما في هذا العيب أنّه سهل التشخيص. "البُخل والعين البيضا عيبين ما بيتخبّوا" إلاّ في حالته هو، لم أكتشف حتى اللحظة إن كان هو فعلاً من هواة المغامرات النسائية كأبي الذي تقول أمي إنها اكتشفت هوايته وهما مخطوبان... سنوات جمعتنا لم أعرف فيها سوى القليل عنه، كأنّه هو الرجل المُحجّب. أنا حجبت شعري بوشاح، وهو حجب مشاعره بذكاء.

* * *

أركّز بصري في الجهة المُقابلة لي. إنها تُمسك خصلات رخيّة من شعرها الأسود اللمّاع وتغوص في المدى اللانهائي.

شعرها الطويل يُغطّي كتفيها العاريتين. عيناها نصف مغمضتين. أهي تتقصّد هذه النظرة أم أنّ أشعة الشمس الضاربة فوق المقهى تمنعها فعلاً من فتح عينيها؟ فمها أيضاً نصف مغلق. وكأنها تريد أن تهمس بكلمة حبّ في أذن من أحبّه أنا.

أظنّها تُتقن لعبة "الإثارة" تأخذ وضعية العارضة في لوحة "المرأة المفكرة" للفنان الفرنسي جان آفي، هو الذي يقترح إغماض العينين وفتح

الشفتين وإمساك اليد بخصلات الشعر المبعثرة، أسلوباً في تصوير نموذج الإثارة الأنثوية. لوحته تلك رسمها بألوان ضبابية حتى تبدو "عارضته" وكأنها خارجة لتوّها من حلم ذكوري. ولا أدري إن كانت نظراتها الجريئة إليه ونظراته المسروقة إليها قد أدخلته في فانتسماتٍ وإيهامات جنسية، مع كلّ ما تكشفه من جسدها الجميل؟

* * *

تُدير وجهها، وأنا أدير نظري عنها. أرفع كتفيّ وذقني. أخالني أنفخ نفسي، علّها تراني، فتخجل من نفسها وتكفّ عن مغازلته بنظراتها غير البريئة. لكنها تستمرّ في لعبتها...

تتجاهلني، و"تُفوكس عليه.

أشعر بحواسي تتخدّر. إنها لحظة مواجهة مع امرأة تتحدّاني بإغواء "رجل حياتي" وبتجاهلها لي أيضاً.

أمرّ في هذه اللحظات بانعطاف حاد في حياتي. أنا لم أفكّر قبل اليوم بنفسي. ولم أكن أملك أيّة فكرة عنيّ! من أنا؟ أنا فعلاً ضائعة... أنا نفسي لم أعد أفهمني.

أحسّ الآن بأنني خسرت أنوثتي... أنا شيء يحتاج إلى مصطلح جديد يُعرّف به. ففي الغرب اخترعوا للإنسان غير المؤمن مصطلح "اللاديني حتى لا يُنعت بالملحد، باعتبار أنّ من لا يؤمن بالأديان ليس بالضرورة أن يكون ملحداً كافراً بوجود الله. وأنا أحتاج الى مصطلح دقيق كهذا، نعت ينفي عنّي صفة الأنوثة من دون أن يصفني بالذكورة. اللاامرأة، مثلاً... كم يروقني هذا الوصف! "اللاامرأة" أنا هي.. كلمة تُشبهني، تُناسبني، تليق بي. كلمة تترجم بأمانة حقيقة ما أشعر به الآن. أنا امرأة، ولكن ما هي قيمة امرأة من دون جسدها؟ وهل الأنثى تظلّ

أنثى بلا شعر يطير وخصر يميل؟ أنا لا أعلم ماذا يقول الناس عني. لكنّي أدرك جيداً أنّ ما أبدو عليه لا يشي حتى بأنني ظلّ امرأة... وبماذا يهمّ الناس إن كان لديّ شعر مدفون تحت الحجاب...؟ وجسد غارق في الثياب...؟ وأنوثة ضائعة بين الأقمشة كما تضيع حبات الذرة في قلب أوراقها؟... هم حتماً لا يرونني سوى كائن ضبابي يعيش متوارياً في ظلّه.

الحقّ أنّ الناس تدرك ما يظهر من الأشياء وتنسى بواطنها، و"إن كانت حقيقة الإنسان تُقيم في نصفه المُظلم، والترهات في نصفه المضيء"، على حدّ قول الشاعر حسن عبدالله في ديوان "ظلّ الوردة"

عليّ ألاّ أفكّر بها الآن. هو؟ هل يُحبني فعلاً أم أنّه انتقم منها بي؟ أم أنّ فضوله دفعه إلى اكتشاف غموض المرأة المحجبة بعدما اختبر عشق المرأة المتحرّرة؟ لا شكّ في أنّه يجدها أجمل مني بكثير. وربما لم يجدني جميلة أصلاً. فهو لم يرَ من أنوثتي شيئاً. ربما أكون نوعا جديداً رغِب في اكتشافه، وسيفقد شغفه بي بعد أن أغدو مُتاحةً له. نعم. فما الذي يمنع أن يكون أحبّ فيّ غموضي وارتبط بي لكي يستمتع باكتشاف ما هو محجوب عن غيره.

هذا النوع من الرجال موجود فعلاً. أذكر جيداً الشاب الإيطالي الوسيم الذي تقرّب مني أثناء التحضير للمعرض الدولي لطلاّب الفنون التشكيلية في باريس، وحينها قال لي بلغته الفرنسية ذات اللكنة الإيطالية:

j'adore ton visage,ta feminite"

je fais tout pour decouvrir la beaute que tu caches sous ce voile!

"أحبّ وجهك، أنوثتك، أفعل ما بوسعي لأكتشف جمالك الذي تُخبئينه وراء هذا الحجاب"

ذاك الشاب لم يُحبّني طبعاً. لكنّه كان مُستعدّاً لأن يفعل المستحيل حتى يكتشف سرّ الجسد المُحجّب.

لكنني لن أقارن الرجل الذي أحبّه بالآخرين. لا أريد أن أظلمه، وأن أظلم نفسي معه. فأنا لم أحبّ أحداً كما أحببته، ولن أفكّر بأنّ حبّه لي إنما هو إرضاء لذاته، فقط.

ما أحسّه الآن هو فعلاً أبشع من كابوس. خائفة منه، وعليه. لا أعرف كيف أساعد نفسي. أهدر نفسي وكأنني أنتقم منها. أنا حقاً لا أفهمني. ومن عساه يفهم امرأة ليست إلاّ رزمة من الأحاسيس المرضية. نظرة تُحييها، وأخرى تُرديها!

حساسيتي مُفرطة ولم أنكرها بتاتاً. لكنّ ما رأيته اليوم هو أمرٌ لا تحتمله امرأة من حديد. نظراتهما المتبادلة علناً روّعتني. المرأة الجميلة التي أحبَّها في يوم من الأيّام تظهر أمامي، فتُغازله بنظراتها الحارقة وتعمى عنّي.

ولكن، كيف يشعر الآخرون بوجودي وأنا أصلاً لا أشعر بي؟ هي المرّة الأولى التي أحسّ فيها أنني أعيش بجثة، لا بجسد. وماذا يبقى من الجسد بعد أن يُلفّ بكفنه؟ هل يصحّ اعتباره أكثر من جثّة؟ جثّة هامدة؟

أنا فعلاً لا أصدّق ماذا يحدث لي! هل يُعقل أن تقضي امرأة مثل هذه على رسامة مثلي؟

يبدو أنني لم أستطع أن أتخلّص من شعور الأنثى التي فيّ...

اعتقدت أنني بحجابي سوف أخدّر مشاعري الأنثوية حتى يبقى شعوري بفنّي هو الأقوى. لكنني اكتشف الآن، متأخرة، أنّ استئصال الأنثى من دواخلنا أمر غير ممكن. المرأة فينا تظلّ حيّة وإن خنقناها بألف وشاح.

أدير وجهي نحوه وأشهق شهقة صامتة أستردّ فيها حياتي التي حاولت تلك الحاقدة أن تسرقها منّي.

لا، لن أدعها تقتلني باستخفافها بي.

* * *

أتنفّس. أنا لم أمت إذاً. وجسدي ليس جثة...! نعم، أنا أحيا. كم أتمنى لو أنني أصرخ أمامها، وأمام كلّ هؤلاء الناس بهذه العبارة، لعلّني أوقظها من حلمها في قتلي، وفي سحق ذاتي. لو أنني أهزّها بصدى هذه العبارة التي سبق أن هزتني عندما قرأتها أوّل مرّة في رواية ليلى بعلبكي الشهيرة "أنا أحيا" هذه الجملة الصغيرة سكنتني وأنا بعد تلميذة، وظلّ صداها يتردد بقوة داخل رأسي. وها أنا أستعيدها في أصعب لحظة في حياتي.

لا، أنا لا أبالغ. فما أمرّ به الآن هو فعلاً خطير وحرج. أراني متأرجحة في عالم برزخي لا يمنحني فرصة الحياة ولا راحة الموت. مرّة أشعر فيه بأنني أتلوى كالأحياء، وأخرى بأنني أنعدم كالأموات.

لكنّني لن أستسلم...

لديّ رغبة قوية في أن أصرخ أمامها: "أنا أحيا" ولكن ما عسى أن تعني هذه العبارة لامرأة مثلها؟ هل تفهم أنني تقصدت اختيار القول "أنا أحيا" وليس "أنا أعيش"؟ أهي قادرة على التمييز بين فعلين متشابهين مثل "أحيا" و"أعيش"؟ حتماً لا! لن تفهم أنني اخترت الأوّل لأنّه متفرّع من كلمة "حياة" التي تُناقض الموت والثبات والعدم، وتجاهلت الثاني لأنّه يُذكرني بفعل "يعتاش" بمعنى يقتات، المُشتقّ من كلمة "عيش" أي الخبز في قواميسنا اليومية...

هكذا أنا، ألعب بالكلمات كما ألعب بالألوان، حتى في صميم مأساتي. لقد اعتدت استخدام المفردات بتلويناتها تماماً كما الألوان بتدرجاتها. أنمّق عباراتي كما لو أنني أرسم لوحة.

ثمة من يعتقدني شاعرة لأنني أهتمّ في شكل الكلمات ومعانيها. ومع أنني أتذوّق الشعر وأقرأه بنهم، إلاّ أنّ الرسم هو ما علّمني فنّ التنميق والتنسيق، بدءاً من الملابس وانتهاءً بانتقاء المفردات.

* * *

أعرف أنّه ليس مدهوشاً من صمتي. هذا الصمت الذي تملّكني فجأة يعرف سببه تماماً. يُراقبني. أنظر إليه بطرف عيني، فأجده يتأمّلني. لكنني لا أريده أن يراني ضعيفة إلى هذا الحدّ. أنا لا أقدر على النظر في عينيه، كتلميذ كاذب لا يجرؤ على مواجهة مدرّسه، أو كامرأة خائنة تخجل من النظر في عينيْ زوجها. أخاف أن يفتضح أمري. العينان مرآتا القلب، وأنا خائفة من أن تكشفا أمامه سرّ اضطرابي وأفكاري وشكوكي!

يوجّه إليّ حديثه. يُدني رأسه مني. وأنا أتململ من مواجهته. لا أريده أن يشعر بشيء. عليّ أن أفهم حقيقة مشاعره تجاهي. الآن. سنوات عدّة لم تكفني حتى أكتشفه. لماذا أحبني؟ وماذا يحبّ فيّ مع أنه لم يرني بعد. لم يرَ المرأة التي فيّ... كيف أصدّق أنّه قادر على التمنّع أمام الجميلات المتلهفات إليه من أجل خطيبته التي لم تسمح له بأن يكتشف جسدها بعد.

لمَ أشكّ به؟ لمَ أظلم نفسي هكذا؟ لمَ أستصغر نفسي إلى هذا الحدّ؟ لا أعرف سبب كلّ هذا الدمار الهائل داخلي... كيف يُمكن أن أعيد بناء ذاتي المهدّمة؟ هل بنظرة غيرة منها قد أستعيد ثقتي بنفسي؟

* * *

المكان هادئ وجميل. زرقة البحر مدهشة. ابتسامته تُضفي على جمال الطبيعة جمالاً أمّا صوت فيروز، فيزيدني رغبة في البكاء، وهي تُغنّي كأنما تقصدنا نحن، أنا وهو: "بالقهوة البحرية، واطلّع بإيديك، وتشرب من فنجانك، وإشرب من عينيك"

السعادة التي ينبغي أن أعيشها وسط هذا المنظر الطبيعي البديع مع الرجل الذي أهوى، سُرقت مني، وصرت أعيش بدلاً منها اغتراباً حقيقياً عن ذاتي... وكيف عساي أتآلف مع الآخرين وأنا غريبة عنّي...؟

لا أفهم سبب ما أنا فيه الآن. هل غيرتي منها أيقظت فيّ هذه المعاناة؟ أم شغفي به؟ أم أنّه قلق الأيام الأخيرة قبل افتتاح المعرض؟ لا أدري!

الثواني تمرّ ثقيلة... ثقيلة جداً.

متى عساها تخرج من هذا المكان، هذه اللعينة؟

أدقّق فيها أيضاً. أراها تُبدّل طريقة جلوسها. فتُقرّب جسدها إلى الأمام وتُلصق صدرها بحافة الطاولة. نهداها المكشوفان يتدليان على الطاولة كحبتي فاكهة استوائيتين ليسلبا ما تبقّى من عقلي...

لا، لا... ماذا يحدث لي؟ أيُعقل أن أغار من نهدين أملك مثلهما، وفوقهما موهبة كبيرة...

لكنّ الواقع يؤكّد أنّ هذا الجسد الذي أملكه ولا أملك حق التصرّف به، بات سرّ نجاح أيّ امرأة. فكيف لحياتي أن تزدهر من دونه؟ المجتمع الحديث تمكّن من أن يُحوّل الجسد الأنثوي إلى مجرّد "غرض" لا دور له سوى الإستهلاك. جسد المرأة أضحى اليوم مكاناً لصراع الخطابات المتناقضة، وحوله تدور النزاعات الكبرى. ففي إحدى الملصقات التي درستها في مادة "فنّ الصورة"، وجدت أمامي صورة رائعة

لامرأة يعلو صدرها العاري فم بشفتين حمراوين، بينما يحلّ مكان رأسها مكواة. صورة تُعبّر عن جسد شديد الأنوثة والإروسية، وإنما برأس لا يُساوي أكثر من جهاز منزلي بسيط كالمكواة. وقد أرادت الفنانة البريطانية ليندر كيرسيلينغ من خلال هذا الملصق الجريء أن تُحارب "تشييء" المرأة، وحصرها في إطار جسدها المرغوب جنسياً في المجالات كلّها. وأثار الملصق هذا جدلا في الصفّ حول الجسد في حياة المرأة، وبعدما عبّرتُ عن رأيي، توجهت أستاذتي إليّ بسؤال ظلّ صداه يتردّد في رأسي طويلاً: "أليس الحجاب هو أيضاً تشييئاً للمرأة؟ ألا يجعلها أداةً للفتنة التي يجب سترها تحصيناً لنفس الرجل وعينه؟"

لا أعرف إلى أين تذهب بي أفكاري. أحاول أن أفتح معه موضوعاً لعلّه يُحدّثني وأشرد أنا داخل عالمي. يتكلّم وأنا أوهمه بأنني أسمعه. أُخفض وجهي وأسرق نظراتي إليها... إنّها مختلفة عن صديقاتها. إشراقتها توجِد حولها هالة تجعلها مُبهرة، مُضيئة كنجمة سينمائية.

أقارن نفسي بها. أبدو أمامها كأنني غريبة تتسكّع تحت مظلّتها. مظلّة مُخلّعة... بينما هي ترقص كساحرة عارية تحت المطر.

الطقس حار، حار جداً. ومع هذا بقيت صورة المظلّة تسكن رأسي. هذه المظلّة التي نحملها بأيدينا ونختفي تحتها أضحت خيمتي. أعيش تحتها. وتحتها أمضي أيامي...!

مظلّتي تزيدني غربة وبرداً وانعداما... وأنا تحتها أختفي لأعيش غريبة وتائهة، من دون أن أعرف إن كانت تُظللني أم أنها تجعلني ظلاً؟ ولكن لا ينبغي أن أبالغ. عليّ أن أكون مُنصفة.

فأنا تحت هذه "المظلّة" ارتقت أحاسيسي، وتمكّنت من تأمّل العالم بهدوء أكبر، بعيداً من ضوضاء الحياة وترّهاتها!... ولولا أنّني كنت أسكن في ذاك الظلّ، لما كان لحلم حياتي أن يُبصر النور، ربما!...

مازلت أحسّ المطر يطوّقني. أسمع زخاته فوق مظلتي. ومع أنّ الشمس ساطعة، أحسّ بغروب ذاتي. وهذا طبعاً ما لا يُمكن لامرأة عادية أن تحسّه. أجزم أنّ تلك المرأة التي تُشعلني غيرة ليست مثلي. فهي من الأشخاص الذين لا يشعرون بالمطر إن لم ينهمر على رؤوسهم، ولا بالوجع إن لم يفتك بأجسادهم، ولا بالقلق إن لم يطاول قلوبهم. فلمَ أقارن نفسي بأشخاص لا أنا منهم ولا هم مني؟

أتمنى لو أنني أصرخ بها. ولا أعرف إن كانت صرختي في وجهها كرهاً لها أم أنّها انفجار صرخة مكبوتة دفنتها طويلاً في أعماق نفسي!

* * *

هذه أنا. وهكذا أعيش أيّامي... بقلبين، بجسدين، بروحين. هي حياة امرأتين... نعم، هذه أنا. "أنا.. هو آخر هذه العبارة التي قالها رامبو لم تُكتب لي أو لمثيلاتي، وإنما استطاعت أن تختصر حقيقتي كلّها... فأنا والآخر نعيش معاً في نَفسٍ واحدة. هذه هي أنا. حقيقتي تكمن في عتمة الملابس التي أرتديها. داخلها تجد أنثى اختارت أن تختبئ أو اخترت أنا أن أخفيها، لا أدري. وعلى أية حال، ما عادت الأنثى التي هي أنا تظهر إلى العلن، بل اعتادت أن تنكفئ على ذاتها أمام الشمس والضوء والزحمة والأعين كانكفاء نجم منتصف النهار.

أنا نجم مخسوف، وهو بدر ساطع نوره وسط ظلمتي.

إنّه يظلمني. علاقتنا غير متعادلة. جماله يتجلّى في شعره وعينيه وجسده وابتسامته. أمّا أنا فلا يبدو منّي شيء. وجهي مُسيّج بحجاب يحدّ تقاسيمه ويُقيّدها. الحجاب ليس مسألة شعر فحسب. إنّه اغتيال لكلّ معالم الجمال. إنّه يُبدّل وجهي ويُحيلني امرأة أخرى. امرأة قد تكون أكثر منّي قدسية وبراءة، لكنّها ليست أنا. ولا أدري من أين أتيت بهذه

القوّة حين وضعته. لم أكن أبالي بشيء. المهمّ عندي تلك البداية الجديدة في حياتي. أن أكون امرأة "تعمل لدنياها كأنها تعيش أبداً، ولآخرتها كأنها تموت غداً"

لكنني أعلم أنّ هذا الوشاح الذي يُغطي رأسي يضعني داخل كادرٍ مقفل بإحكام، ويجعلني في نظر الأخريات أنثى من صنف آخر. وربما وجود حبيبي بجانبي يزيدهنّ عداوة لي وقسوة عليّ، أنا المحجبة. المرأة من الدرجة الثانية. هنّ ينتقمن منّي بنظراتهن، بهمساتهنّ، بإغرائهن.

شعره الناعم المقلوب إلى الوراء. عيناه السوداوان الواسعتان، منكباه العريضان، سحنته الذهبية، شخصيته الرصينة، أناقته، ابتسامته المنحرفة قليلاً... صفات تجذب أنظار الفتيات، أجمل الفتيات، إليه. ونظري أنا أيضاً.

ألتفتُ إليه، فأراه منشغلا بحديثه معي. حديث لم أفهم منه ولا كلمة. لكنه لم ينتبه. لم يسألني بماذا أفكّر ككل مرّة يراني فيها شاردة الذهن. أظنّه اعتقد أنّ صمتي الطويل وهزات رأسي المتتالية لا تعني سوى انغماسي الكلّي في كلامه...

إنّه يُحدّثني بلسانه وأصابعه التي أحبّها. أصابعه التي كانت أوّل ما لفتني فيه. هل يُمكن أن تُحبّ امرأة رجلا لمجرّد رؤيتها أصابع يديه؟

قبله، لم أكن أعرف سرّ انجذابي إلى شاب. لم أكن أعرف أصلاً ما هو أوّل شيء يلفتني في الرجل. ما عرفت يوماً الإجابة عن هذا السؤال. كنت أتلعثم دائماً أمامه. أمّا صديقاتي فيتناقشن طويلاً حوله: "عيناه"، "طول قامته"، "ابتسامته"، "شخصيته" والجواب الأكثر غرابة كان "الحذاء" أكثر من واحدة اعترفت بأنّ حذاءه النظيف واللماع هو أوّل ما يلفتها في الرجل. بصراحة، لم أفهمهنّ يوماً. وكنت أمازحهن قائلة: "وإذا خلع الرجل حذاءه فهل ينتهي إعجابكنّ به أم أنّ تأثير

الحذاء الأوّل لا يُنسى؟" ولم أفهم قيمة حذاء الرجل بالنسبة إلى المرأة إلاّ بعدما عثرت بالصدفة على تحليل فرويدي لنفسية المرأة التي يشدّها حذاء الرجل ويُقرّبها منه...

أمّا ما لم أسمعه يوماً من فتاة فهو إحتمال انجذابهنّ لأصابع يديّ الرجل. لا أدري لماذا... حتى أنا لم أفكّر في هذا الإحتمال قبل أن ألتقيه. ربما لأنّ الأصابع الجميلة هي تفصيل أنثوي يرتبط بيدي المرأة الناعمتين فقط. فالرجل لم يكن يعني لي أكثر من صوت أجشّ وأصابع ثخينة. هذا المفهوم تغيّر معه. معه فقط...

أوّل مرّة وقع فيه نظري على أصابع يديه الجميلة، لم أصدّق أنّها لرجل. أعني رجلاً مُفعما بالرجولة. الشعر الأسود الذي يخرج من تحت ياقة قميصه لا يشي بأنّ صاحب هذا الصدر "المشعر يملك أصابع بهذه النعومة. هذا التناقض بين شعر صدره الأشعث وأصابعه الأنثوية صدمني منذ لقائنا الأوّل في الجامعة. تنبهت لحظتها إلى أنّ هذا الشاب هو رجل بمواصفات خاصة. وكم حلمت بعد ذلك أنني أقبّل هذه الأصابع بينما يُمرّرها هو على وجهي بعذوبة.

عندما أتى لزيارة صديق له يدرس معي في معهد الفنون، لفت انتباهنا جميعاً. فالوسيمون كانوا قلّة في كليّتنا. وسامة بعضهم كانت تختفي تحت شعرهم المنفوش ولحاهم الطويلة المبعثرة، وأسنانهم المصفرّة من كثرة التدخين والمشروب، و"التحشيش أحياناً. تلك كانت حياتهم. وهم يعتبرون أنّها لا تليق بغيرهم. الطلاّب كانوا يُشبهون بعضهم بعضاً. ومن لم يكن مثلهم كان يُعامل على أنّه من خارج السرب. يُتهّم بثقافته ويُشكّك في موهبته وأحياناً في مرجعيته الإيديولوجية.

الفتيات كنّ جميلات وأنيقات بالرغم من الأسلوب الفوضوي في ترتيب أنفسهن. الوشاح الملوّن يُزيّن رقبة هذه، والأقراط الدائرية الكبيرة

تُبرز جمال تلك، والسلاسل الطويلة والخواتم الفضيّة الكثيرة التي تُزيّن أصابع أيديهن وأحياناً أرجلهن، كانت تزيدهن أنوثة. أمّا السيجارة فكانت في معظم الوقت "لزوم الديكور هذا كان أسلوبهنّ الفني في التعبير عن تحررهن الاجتماعي وإعلان مساواتهن مع الرجل. وأنا أيضاً كنت مثلهن، ولكن من دون سيجارة وكأس وشعر منفوش. مجنونة كنت- ومازلت- وإنما على طريقتي.

أحياناً كنت أحسّ أنني واحدة منهم. وفي أحيان أخرى، كنت أشعر بأنني غريبة عنهم، وضائعة بينهم كأنني وسط عصابة "ثرثرة فوق النيل إنهم مثقفون، رومنطيقيون، مُنظّرون، تائهون... يلتقون ليلاً في "عوّامتهم"، يُحرّرون أجسادهم وأفكارهم ويغرقون في "ثرثراتهم" التي لا تُهمّ سواهم. كنت أحبّهم، وأعيش معهم علاقة فيها من الغربة بقدر ما فيها من الإنتماء إليهم. وأذكر جيداً المشكلة التي أحدثها حجابي معهم في البداية.

بيئتي، داخل المنزل وخارجه، لم تتقبلّني بسهولة بذاك الشكل الجديد. أمّا أنا فلم يكن شيء يؤلمني سوى مشهد المرآة، حين أرى كيف أتحوّل بلحظة من فتاة صهباء إلى امرأة بلا لون. فالألوان طالما كانت وسيلتي للسفر والتخيّل والتأمل والتذكر، لذا أراني أنسى كلّ شيء من الذكريات إلاّ ألوانها. ولديّ قدرة عجيبة على تذكّر ألوان كلّ الأشياء التي أصادفها. لون الزهور على جوانب الطرقات. لون عيون الأشخاص الذين أقابلهم. ألوان ملابسهم، وأحذيتهم، وأسنانهم. أذكر الألوان لأنني أعشقها. بل أُدمنها. إنني أتخيّل الألوان بصفتها كائنات لها خصوصياتها، وبصفتها أفكارا حيّة، وأحياناً بصفتها كيانات ذات عقل خالص، كما يُعبّر بول سيزان.

وبعين الفنانة التي أملكها أعرف أنّ مكمن الجمال فيّ نابع من التمازج بين لون شعري وبشرتي. جميعهم كانوا يقولون إنّ جمالي يبدأ في

شعري، وينتهي به. إلاّ هو. هو لم يرَ شعري إلى الآن. ولا حتى في الصور. هو لا يعرف أنه يحبّ فتاة جميلة أصلاً.

يا إلهي! يرتشف القليل من قهوته ويرفع حاجبيه وعينيه، وينظر إليها. يبدو أنّه اشتاقها. لا، لا أستطيع أن أتحمّل مجرّد التفكير في الأمر. ماذا لو عادت العلاقة بينهما إلى سابق عهدها؟ منذ مدّة وهو مشغول عني بحجة عمله الكثير قبل العطلة القضائية. كان يُحاول أن يُقنعني بأنّه في انشغاله عني، يمنحني فرصة لإنجاز بعض التحضيرات الخاصة بالمعرض. الآن فهمت!... ربما كانا يلتقيان معاً، وأنا كالغبية غارقة في عملي، لا أدري شيئاً.

* * *

الغيرة تحرقني. أما هي، فلم ترَني أصلاً. تجاهلها لي أعادني إلى المرحلة الأولى من وضع الحجاب، عندما صارت العيون تتجاهلني وأنا أمشي في الشارع، بين الناس.

النظرات النهمة التي كانت تلاحقني أينما مررت، شبِعت فجأة. تجاهلٌ وجدته لذيذاً. شعرت أنني تحررت من عيون كانت تُقيّدني. فأنا كنت أختنق فعلاً كلّما كشفت جزءاً من جسدي، إلى أن قرّرت أن أخنقه كليّاً.

غطيّت جسدي من غير أن أجد جوابا. لكنّ أحداثاً من الماضي تستعيدها ذاكرتي أحياناً، فأحسّ كأنما عشت حياتي، من دون أن أقصد، وأنا أمهّد لهذا القرار. ففي الثالثة عشرة من عمري اتخذت أول قرار صادم أثار استغراب عائلتي. في تلك السنّ الصغيرة قرّرت عدم ارتداء المايوه في المسابح المختلطة التي كنت أقصدها مع عائلتي. والداي لم يمنعاني على رغم صدمتهما. حاولا إقناعي بأنّ لا عيب في ارتداء لباس البحر، إلاّ

أنني لم أرجع عن قراري. ومن ثمّ عملا على إقناعي بأنني مازلت صغيرة، ولم أقتنع.

"الرمانتان" اللتان نضجتا فجأة في صدري والسائل الأحمر الذي خرج مني كبقعة من الحبر القاني، وصوت جدتي التي كانت كلّما رأتني تُصفق بيديها المرقطتين وتغني لي "فقسوا بزازا حلّ جوازا" كلّ هذه الأشياء التي داهمت طفولتي فجأة كقطار شارد، جعلتني أعي حقيقة أنني ما عدت صغيرة.

"أنا كبرت. لم أعد طفلة كما تحاولون أن توهموني. أرى نفسي كلّ يوم في المرآة، ومرآتي لا تكذب. ما عدت طفلة وما عدت أحبّ أن أكشف جسدي"

هذه الصرخة أطلقتها مرّة في وجه أمّي التي كانت تُصرّ على أنّ لباس البحر لا عيب فيه، وأنّها لا ترى أيّ مشكلة في أن أرتدي "المايوه" مثلها ومثل شقيقتيّ وصديقاتي.

جدتي وحدها كانت سعيدة بي، كانت تقول إنّ فيّ شيئاً من النعمة، وتُقبّلني.

في تلك السنّ، تركت كلمة "لا" صداها في آذان كلّ من يعرفني. أصبحت حديث العائلة وصاروا ينادونني بألقاب كثيرة أضحك الآن كلّما تذكرتها، برغم أنّها كانت تُضايقني كثيراً في ذلك الوقت، مثل: "الحجة" و"الشيخة" و"مولاتنا" كانوا يبتسمون والصدمة تغلب عليهم كلّما واجهتهم بالامتناع عن النزول إلى المسبح بملابس البحر، عندما كنّا نقصد الشاليه صيفا في منطقة ساحلية جميلة. كنا نهرب إليه من حرّ المدينة. نقضي فيه عطلات نهاية الأسبوع، ندعو إليه أقاربنا وأصدقاء العائلة.

والدي يلعب الورق مع الرجال في الفسحة الواسعة أمام الشاليه، وأمّي تحضّر السندويشات وتجلس مع النساء في حلقة حديث لا تنتهي.

ونحن، الصغار، لا نتوقف عن اللعب إلاّ بعد أن يفتك التعب بنا.

أحيانا كنت أضعف أمام غواية الماء. زرقة لونه نهاراً كانت تغريني بأن أخلع كلّ ما أرتديه وأرمي بجسدي الضئيل فيها. إلاّ أنّني لم أقوَ على التراجع.

كنت أهرب في الليل إلى المسبح، أتأمل النجوم التي تنعكس على وجه الماء الهادئ، ثمّ أخلع فستاني وأنزل إلى الماء بلباس بحر شبه محتشم كي أمارس هوايتي التي حرمت نفسي من ممارستها تحت ضوء الشمس.

كنت ألتحف بظلام الليل. لا أخاف العيون. أسبح بحريّة من دون أن أخجل بجسدي المتفجر كثمرة الكما في صحراء.

خالتي المتخصصة في علم النفس، أو "فرويد العائلة" كما كانوا يُسمّونها، خافت أن يكون قراري الجريء في هذه السنّ الصغيرة نتيجة عقدة نفسية أعانيها. كانت تحاول دائما أن تُنمّي ثقتي بنفسي وتُقنعني بأنّي جميلة وأنّ لا شوائب في جسدي تمنعني من أن أكشفه أمام الناس، اعتقاداً منها بأنّ تغيّر الهرمونات أدّى فيّ إلى أن أكره جسدي الجديد وأخجل به.

"النزول إلى البركة بغير ملابس البحر ممنوع" من هذه اليافطة الصغيرة المعلقة عند مدخل "المسبح" بدأت أعيش صراعي مع نفسي. كان صراعاً قوياً وحقيقياً، حتى قبل أن أعرف معنى كلمة صراع.

كرهت السباحة مرّات كثيرة لأنّ ممارستها تتطلّب مني أن أتعرّى.

"الله لا يحبّ العري"، قلتها مرّة لشقيقتي الكبرى. "ولِمَ خلقنا عُراة إذاً"؟ أجابتني. "حتى نكتشف خيرنا بأنفسنا"... حوار وجودي تتجاذبه

فتاتان. كم أستغرب كلّما تذكرت الحادثة! حوارنا أصاب أمّي بالذهول. وجوابي أنا، الفتاة الصغرى لديها، جعلها قلقة ومدهوشة. وهي لم تتوانَ عن التساؤل: "من أين أتت بمثل هذه الأفكار؟"

* * *

اللعبة التي جعلت مني امرأتين بجسدين وروحين لم تزعجني قبل هذه اللحظة. لا، هي ليست لعبة، بل إنّه القدر الذي جعلني أعيش حياتين في حياة واحدة. هكذا وُلدتُ. رغبتان تتقاسمانني. رغبةٌ بالتخفي، وأخرى بالتجلّي. كأنّ القدر تقصّد أن يهبني بدل الحياة اثنتين. ولهذا بتُّ أعيش بشخصيتين. واحدة داخلية مجهولة أغوص فيها وحدي، وأخرى مكشوفة ومُعلنة أمام الجميع. وليست صدفةً أن أكون من مواليد برج الجوزاء، هذا البرج الذي يُشار إليه بوجهين، لكونه يعيش ازدواجية في كلّ شيء. ومع أنّ الأبراج وعلوم التنجيم والفلك لم تستهوني يوماً، لكنني أؤمن بتطابق كبير بيني وبين البرج الذي أنتمي إليه.

الفصام الذي كنت أعيشه كان يُدهشني... وأنا طالما اعتقدت أنه سيكون سرّ نجاحي في المستقبل كفنانة وزوجة لن يملّها زوجها أبداً. فهو يخرج إلى الناس مع امرأة، ويعيش في منزله مع امرأة مختلفة تماما. امرأة له وحده، لا يراها أحد غيره. كساحرة تتجلّى له دون رجال العالم، لتُدخله - هو وحده- جنتها. أو الأصحّ عالمها المتخيّل حيث لا يُشاركه فيها أحد. ولا حتى بنظراتهم إليها.

كنت أظنّ أنّ غطاء جسدي الذي أوصى به الله النساء المؤمنات لا يضرّني بشيء، بل إنّه يُضفي عليّ سحراً ويجعلني مختلفة عن الأخريات. وأنا امرأة تُحبّ الإختلاف وتعدّه المادة الجوهرية في صناعة الهوية الشخصية... لم أكن أرى نفسي أقلّ من الأخريات. بل كنت

أستشعر قوتي أمامهن. أحسّ أنني أقوى منهن لأنني أنا امرأتان، وكل واحدة منهن ليست أكثر من واحدة.

أحياناً كانت التناقضات التي أعيشها في حياتي تُقلقني، لكنّ الأمور لم تصل بي، قبل هذه المرأة، إلى أن أحسّ بأنني منفيّة إلى هذا الحدّ في عالمي اللامرئي...

إنها هي. هي وحدها من أيقظتني من غفوتي لأكتشف ببساطة أنني لست أنا. وأحسّ بالبؤس جرّاء ذلك.

يضع النادل أمامي حلوى chocolate cake، ولا أدري إن كنت طلبته فعلاً أم أنّه طلبه لي من غير أن يسألني لمعرفته بأنه طبق الحلوى المفضّل لديّ.

أدير وجهي نحوه، فيبتسم لي ويمدّ يده إشارة منه بأن أبدأ بتناول الكيك بالشوكولا أرى كم أنّه وسيم. أتساءل لماذا هو الآن معي؟ هل لأنني مختلفة عنهن؟ هل لأنّه أراد أن يكتشف ما وراء قناعي؟ لا أعلم.

عندما قرّر أن يزور صديقه الأقرب إليه في كليّة الفنون كنت أنا الفتاة المفاجأة بالنسبة إليه. وما من واحدة لفتت نظره غيري، مع أنّه لفت أنظار جميع الفتيات إليه. لا أدري إن كان أحبّ فيّ هذا الخليط العجيب بين الفن والدين، التحرّر والالتزام، أم أنها مجرد رغبة في الإكتشاف والتغيير؟ أم كرهاً بالفتاة المتحرّرة التي أقامت معه علاقة جسدية ومن ثمّ تركته لترتبط برجل آخر؟...

في البداية لم أجهد نفسي في مثل هذه الأسئلة. بل كنت مأخوذة به. تلك كانت المرّة الأولى التي يُغريني فيها جسدٌ كامرأة، لا كفنانة.

لقد اعتدت رسم أجساد "الموديلات"، واحترفت إظهار مكامن الجمال فيها. وكانت الأجساد المثالية تخلق لديّ رغبة عارمة في أن أحوّلها

إلى مادة للوحاتي. وحصل مرّة أن استقدم أستاذ مادةّ "الجسد" في السنة الثانية "عارضاً" إلى الصفّ حتى يرسمه كلّ واحد منّا باسلوبه الخاص. كان الشاب يملك جسداً مثالياً وحسيّاً. كان عارياً، إلاّ من وشاح يُغطّي منطقة الخصر والحوض. كنت أحمل الريشة بيدي، ولا شيء فيّ يرتعش، سوى عينيّ. كنت أتفحصّه، أو بالأحرى أكتشفه. فأنا لم يسبق لي أن صادفت رجلاً عارياً إلاّ في بعض الصور واللوحات. لكنّه عندما وقف أمامي بلحمه ودمه كان الأمر مختلفاً، ومربكاً...

ذاك الجسد الذكوري كان صدمتي الأولى. الجسد لم يكن يعني لي سوى طبقة ناعمة، ملساء، تتخلّلها دائرتان في الأمام، وأخريان في الخلف. فأنا لم أتآلف مع الأجساد الصلبة بعضلاتها القوية النافرة. أحسست للحظات بالخوف أمام ذاك الجسد الذي أكتشفه لتوّي. إلاّ أنني سرعان ما أحببت اختلافه. جسد الشاب كان شبيهاً بأجسام المنحوتات الإغريقية القديمة: ذكورياً، قوياً، صلباً، حسيّاً. كان رجلاً مثيراً وإنما للرسم، وليس لي أنا...

أمّا "هو"، فالتجربة معه كانت مختلفة جذرياً. أردت منذ اللحظة الأولى للقائنا في باحة الجامعة أن يكون لي. أن يكون جسده أيضاً لي أنا، وليس مادة لأعمالي ورسومي.

القميص الأبيض الذي رأيته فيه أوّل مرّة كان يلتصق قليلاً بصدره العاري، فيبرز منكبيه العريضين وعضلات يديه المفتولة، والقليل من شعر صدره الذي يظهر بخجل من تحت قميصه. تمنيت لو أنني أرمي أقلامي وألواني وأوراقي وأرتمي في حضنه لأستمتع بنعمة أن يكون الكائن أنثى. جسده أغرى المرأة التي فيّ، وأضعفها.

كلّ شيء فيه كان ينبض رجولة وحضوراً. إلاّ يديه. فهما ناعمتان نعومة نسائية. لكنني فُتنت بهما.

منذ ذاك اليوم، لاحظت كلماته التي تترافق دائماً وحركة أصابعه الرفيعة، وكأنّها أنامل مايسترو تتحرّك في أروع تجلياته الموسيقية.

أحمل الشوكة بيدي وأحفر في قطعة الحلوى من غير أن أتذوقها. أغوص في أفكاري وذكرياتي عنه بينما هو يُحدّثني بكلماته، وأصابعه التي لها رقة أنثوية.

يبتسم لي بعينين ناعستين، فتتسّع شفتاه بابتسامة مثيرة.

تلك الابتسامة "البراندونية" التي تنحرف نحو جانب واحد من وجهه تُذوّبني. فأنا من المغرمات بنجوم الزمن الماضي، نساءً ورجالاً لكنني لم أتوقّع أن أحبّ رجلاً له ابتسامة مارلون براندو نفسها. براندو كان دائماً مثال الوسامة في نظري. أحببته منذ أن قرأت سيرته "ستون عاماً" في مكتبة المركز الثقافي الفرنسي. كنت يومها في السابعة عشرة من عمري.

زميلاتي كنّ مغرمات وقتها بليونارد دي كابريو وبراد بيت وجوني ديب... يُلصقن صورهم في كلّ مكان، أمّا أنا فأغرمت بنجم من زمن الأبيض والأسود. قرأت سيرته فأسرتني جرأته ونضاله في صفّ الهنود والزنوج واللاجئين، أنا الفتاة التي طالما أحسّت بثورات تنمو داخلها. لكنّني لا أنكر أنّ أكثر ما أحببته في الكتاب هي صور براندو ب"الفانيلا" البيضاء، وهو كان أول من ارتداها في السينما.

حاولت جاهدة أن أبحث عن أفلامه القديمة مع إيليا قازان في مكتبة والدي السينمائية لكنّني لم أجدها. تمنيت أن أشاهده شاباً، وهو يُمثّل. وهو يتحرّك. وهو يتكلّم. إلا أنني لم أفلح في إيجاد أيٍّ منها.

عشقت صوره بالأبيض والأسود، مع أنّ هذين اللونين لا يليقان بعصريته، فهو لا يُشبه نجوم جيله. بل كان مختلفاً. متجاوزاً موضة ذاك الوقت. وربما هذا ما جعل منه "معبود النساء" في زمانه، إلى حدّ أنّ

علماء النفس اشتقّوا من اسمه اسم المرض السيكولوجي المتعلّق بهوس المعجبات بالنجوم "براندونيسم" ولم يخطر ببالي، ولا حتى للحظة، أنّ هذا النجم الذي أسرني بسيرته الغنية وبجماله الأخّاذ هو نفسه العمّ كورنيليوني في "العرّاب"، الفيلم الذي شاهدته مرّة تلو أخرى.

أيُمكن هذا الرجل السمين العجوز أن يكون هو نفسه الشاب الوسيم صاحب الفانيلا البيضاء؟ هل من المعقول أن يكون الجمال عابراً، ومتحوّلاً إلى هذا الحد؟

* * *

غارقة في أفكاري البعيدة بينما أهزّ رأسي ظنّاً منّي أنّه يُكلمني. لكنني أراه الآن صامتاً، شارد الذهن. يا إلهي! أخاف أن يكون غارقاً في فانتسماته وذكرياته مع تلك المرأة. تُرى هل أثارته وهي تجلس أمامه، كاشفة عن نهديها الكبيرين وشعرها الغجري الطويل؟

ماذا لو كان يتذكرّها عندما كانت تحضنه، وتُدني صدرها الممتلئ من وجهه، وتضع شفتيها الحمراوين على خدّه، فيما هو يغمض عينيه، مُستسلماً لها. لا... لم أعد أحتمل أكثر.

أنا فعلاً متعبة... مُنهكة... مُرهَقَة!

عليه أن يعرف أنني لا أقلّ عنها أنوثةً، ولا جمالاً ولكن كيف عساه يتيقّن من هذه الحقيقة وأنا أمرّ بملابسي الفضفاضة بين أجساد النساء المكشوفة، فأبدو وسطهن مثل "فزّاعة الحقول" التي يزرعها الفلاحون بقصد إخافة الطيور وطردها من حقولهم.

لكنني لن أسمح لشيء أن يُفقدني ثقتي بنفسي بعد الآن.

وبينما أنا غارقة في أفكاري المبعثرة، يُدير كرسيه نحوي. قد يكون أحمرّ بتعكّر صفو مزاجي منذ أن أخبرني بأنّ حبيبته السابقة هي من

تجلس مقابلنا، والتي أتت قبل قليل وسلمّت عليه وقبّلته. أشعر بحرارة جسده وهو يقترب مني. أحاول أن أتحسس أنفاسه وهي تحطّ على خدّي قبل أن تتلاشى في الهواء.

يُحدّثني، فيتدفق كلامه بقوة سيلٍ من المياه...

لكنّ نظرة تلك المرأة إليه تُبعدني عنه. أظنّها تسأل نفسها عمّا أعجبه بفتاة مثلي. وبدلاً من أسمع كلامه، صرت أسمع صدى صوتي: "آآآآه هـ! لو كان بإمكاني الآن أن أنفرد بك داخل غرفة ليس فيها سوى مرآة حتى تعرفي قدْر تلك التي تجلس هنا. تلك التي تتجاهلينها بكل ما لديك من خبث ولؤم... لو أنني فقط أستطيع أن أقف وسط هذا المقهى المطلّ على البحر وأزيح غطاء رأسي ليتطاير شعري الطويل في الهواء وأراك تتمزقين قهراً. نعم! تتمزقين لأنّ الجالسة بجانب الرجل الذي أحببته ليست أنثى ناقصة كما تعتقدين...! بل هي امرأة أكثر منك، فقط لو أنها تخلع كل ما خلعته أنت"

Baby... "بيبي، بما أنت سارحة؟"

هذا ما كان ينقصني...! كلمة جديدة أسمعها للمرّة الأولى منه بعدما اعتدت أن أقرأها فقط في رسائله القصيرة.

لا أدري لماذا أغضبتني هذه الكلمة. ليس وقتها الآن. أجدها فضفاضة عليّ ولا تليق بي. أستكثر كلمة الدلع التي يُناديني بها.

أنظر مجدداً في المرآة... أيّ طفلة أنا؟ الطفلة التي هي أنا تبدو أكبر سناً وأكثر جدية مما هي عليه في الواقع. هل يراني فعلاً طفلة؟ ما هذه الطفلة المتدثرة بثيابها وعِقدها؟...

أنا طفلة مقموعة لا تشعر أمام تلك المدللة المزهوة بنفسها وشعرها أنّها baby. هل يليق بامرأة مثلي أن تكون طفلة شاب وسيم مثله؟ لا أدري! أعرف أنني أقسو على نفسي، ولكن...

كم أتمنى لو أنني أجلس الى جانبه بخفّة جسد غير مُثقل بطبقات من الملابس في عزّ شهر آب اللهّاب... وأن أترك شعري يطير بحريّة ليلفح خدّه وكأنه يُقبّله... لو أنه يُمرّر أصابعه بين خصلات شعري ويُداعبه... وقتها فقط سوف أصدّق أنني امرأته، وحبيبته. وطفلته.

* * *

أنظر إلى الطبيعة، إلى البحر، إلى الناس، إليها... وإليه.

أتخيّل لو أنهم يُخرجون مراياهم الصغيرة من جيوبهم وحقائبهم لينظروا إلى وجوههم. تُرى ماذا سيكون ردّ فعلهم؟ هل سيرون فيها وجهاً آخر غير وجوههم؟

وجهي الذي طالما أحببته، أضحى كوجه الخفّاش، لا يُرى إلاّ في سواد الليل الدامس. عندما أكون وحدي يتجلّى وجهي أمامي. أمامي أنا فقط، كوحي نوراني لا يظهر إلاّ على أهل العرفان، على "خاصة" الناس دون غيرهم. وكم تمنيت لو أنه يظهر للعامّة! تلك الصورة البديلة التي ترسخّت في أذهان الناس على أنها صورتي ما كانت يوماً لي. معظم الذين يُشكّلون اليوم جزءاً مهمّاً في حياتي هم ممّن عرفوني بالوجه البديل. وهو أوّلهم.

أخفض رأسي وكأنني أنظر إلى الأرض. أنظر مجدداً إليّ. الوجه الذي آراه في المرآة الصغيرة يُفزعني. هذه الشخصية التي أؤديها يومياً لساعات متواصلة ليست أنا. إنّه دور مسرحي أجدت تجسيده حتى صدّقني الجميع به، وبتُّ أنا والآخر، واحداً.

المجتمع هو المسرح الذي أُؤدّي عليه الدور الذي التصق بي. الملابس التي أرتديها هي أكسسوار الشخصية التي تُرافقني أينما حللت، والتي لا أخلعها إلاّ بعد العودة إلى المنزل.

غرفتي هي الكواليس التي أتخلى فيها عن الزيّ التنكري الذي يُرافقني طوال اليوم لأعود إلى ذاتي. إلى حقيقتي، وجسدي. إلى ريشتي وألواني ولوحاتي!

في تلك الغرفة المُظلمة فقط أكون أنا. كُتب عليّ أن أعيش حياتي كالزيت في الخوابي. بين العتمة والسكون تولد الأنثى التي أخنقها كلّ صباح بوشاح جديد. الأنثى التي فيّ أذبحها وأستبدلها بملاك ينفي عنّي شُبهة "المرأة" التي تغوي الرجال وتُسيل لعابهم قبل أن تهوي بهم إلى درك الجحيم.

أحياناً كثيرة أنسى أنني امرأة. أحاول أن أتذكّر. أضع يدي على رأسي لأداعب شعري الطويل فلا أجده. أحاول أن أتلمّس نعومة رقبتي فلا أستدلّ عليها. أنظر إلى الأسفل علّني أرى ثدييّ المكورين فلا ألمحهما.

أهلع. أرتعب. أخاف... أخاف عليّ من أن أكون قد اختنقت تحت طبقات الملابس التي تمسح تضاريسي الأنثوية وتطمسها.

كم هو قاس هذا الشعور. أن تتحوّل فجأة إلى إنسان لا هوية جسدية له.

لم أكن أتصوّر يوماً أن تضيع مني أنوثتي، برضاي. أن أراها مسلوبة مني وأنا أقف مكتوفة اليدين. فلا أجنّ ولا أهذي.

أنا لا أعرف إلاّ أن أكون فتاة. كنت أحسّ أنني لست مجرّد فتاة، بل جُملة فتيات. أنا كائن مفطور على الأنوثة...

ولدت في عائلة "نسائية"، تندُر فيها خلفة الصبيان الذين أجهل عالمهم جهلي اللغة الصينية. كنت أكره ألعابهم الصبيانية وحركاتهم الطائشة. تشرّبت عادات البنات وتطبعت بطبائعهن...

مع هذا لم أتقصّد يوماً أن ألعب دور الأنثى اللعوب. لم أحبّ يوماً لفت الأنظار. بل كانت روحي تكفهّر كلّما سمعت كلمة غزل من شاب أو حتى امرأة.

كنت أكره أن أصل متأخرة إلى دعوة ما حتى لا يستدعي دخولي انتباه الحاضرين.. كلمات الغزل كانت تُصيبني بحساسية مفرطة. فأنا لم أعتدها يوما، على كثرتها.

الدم الذي يفرّ من وجنتيّ وأذنيّ كان يسبب لي حرجاً لم أستطع التخلّص منه إلا بعدما وضعت غطاء رأسي.

الآن لا احمرار يفضح خجلي. ولا كلمات غزل تُثير أعصابي.

إنني رسمت بالشكل الذي اخترته لنفسي جدارا عازلا يفصل بيني وبين الآخر. Don't Touch، هي رسالة واضحة يتلقفها الرجال منذ اللقاء الأول. اللمس هنا ممنوع بمعنييه الحسّي والمعنوي. والنساء أيضاً يرتبن أحياناً لأنني لست مثلهن، لأنني مختلفة عنهن.

أنا لست الوحيدة التي تُغطّي جسدها في مدينتي، وإنما الوحيدة في مُحيطي وبين أفراد عائلتي وصديقاتي. أنا لم آتِ من بيئة ملتزمة دينياً. بل تربيت في أسرة متحررة، لأمٍّ عملت كاتبة مسلسلات في التلفزيون وأب عاش حياة بوهيمية بين أكثر من عاصمة عربية وأوروبية.

الدين لم يكن من شؤون منزلنا، ولم نكن نعرف عنه شيئاً، إلى أن صارت جدتي تزورنا باستمرار بعد وفاة جدّي. كانت هي أوّل شخص أصادفه يُصلّي في حياتي. كان عمري حينها خمس سنوات. صورتها وهي ترتدي ملابس الصلاة البيضاء كانت أول صورة تنطبع في رأسي. أحببتها في تلك الملابس... شعرت بأنّها خارجة من كتب القصص والحكايات، وليس من أرض الواقع.

كطائر جميل كانت تقوم وتقعد فتتطاير ملابسها الفضفاضة وكأنها جناحا حمامة بيضاء تعلو وتغطّ.

كنت أنظر إليها فأراها مشغولة عنّي، مشغولة بتمتمة لا أفهم معناها، ولا سببها.

وجهها كان ملائكياً وثيابها طويلة وناصعة كثياب الأميرة التي غالباً ما كانت تُخبرني أمي حكايات عنها في المساء. في الخامسة من عمري لم أعرف ما الذي كانت تفعله جدتي، وإنما أحببت هذا الفعل. انبهرت به وتجمدت أمامه بخلاف شقيقتيّ الأكبر مني سناً اللتين كانتا تركبان على ظهرها كلّما سجدت، وتنتظران وقوفها حتى ترفعهما عالياً.

وفي اليوم التالي من ذاك المشهد، رسمت جدتي على ورقة وكأنّها ملاك يطير بجناحين كبيرين. اندهشت المعلمة ممّا رسمت وطلبت منّي أن أصف لها ما أريد من وراء هذا الرسم. وقتها عجزت... اكتفيت بالقول إنّها جدتي. لم تكن الصلاة عادة دائمة في منزلنا، ولكن ربما تكون صورة جدّتي وهي تُصلّي أوّل ما دفعني إلى الرسم، ببراءة. ومازلت أذكر تلك الرسمة، على رغم سذاجتها، لأنها أوّل رسومي.

حكايات جدتي كانت أيضاً مختلفة عن حكايات أمّي. فهي لم تكن تروي لي حكايات بيرّو والأخوة غريم وألكسندر دوما... بل كانت تحكي لي قصص الأنبياء والأولياء: قصّة النبي سليمان والهدهد الذي كان يُحدّثه بمنطق الطيور، النبي يوسف وأخوته الذين رموه في البئر غيرةً منه، النبي ابراهيم الذي كان سيُضحّي بابنه اسماعيل من أجل ربّه، موسى الذي وضعته أمّه في صندوق خشبي ورمته في البحر خوفاً عليه من فرعون، النبي يونس الذي بلعه الحوت ومكث في بطنه ساعات طويلة، السيّدة مريم العذراء التي كانت أوّل فتاة تخدم في الدير قبل أن يهبها الله من روحه طفلها عيسى، النبي محمد الذي عرف اليتم صغيراً لكنّه بإيمانه وصدقه وصبره بلّغه الله النبوة حيث كان يتعبّد له في كهف بعيد يُدعى غار حيراء...

كنت أحبّ صوتها المرتجف وهي تحكي. وأحبّ ايضاً نظراتها. كانت تحفظ كلّ الحكايات عن ظهر قلب.

خلافاً لبنات جيلها، كانت جدتي متعلّمة ومثقفة. فعائلتها من الأسر المعروفة بعلمها وإيمانها، حتى إنّ جدّتي كانت تقرأ وتكتب وتعرف في شؤون الدين والفلسفة الصوفية ما لم يكن يعرفه كثيرون من الرجال والنساء في زمانها. كنت أستمع إليها بكلّ حواسي، بينما تميل شقيقتاي للإستماع إلى حكايات الأميرة والأمير، بصوت أمي. هكذا غدوت أنا طفلة جدتي ومدلّلتها. أستمع إليها وأتأثّر بكلامها الذي كان يختلف كثيراً عن كلام والديّ.

حضور جدتي المؤمنة بيننا لم يُغيّر شيئاً في حياتنا. حياة والدي المتحررة من الإلتزام الديني لم تتبدّل. وملابس أمّي ظلّت كما هي. فهي لم تتخلّ عن تنورتها التي تعلو ركبتيها والتي تُبرز جمال ساقيها، ولا عن سيجارتها التي لم تُبارح إصبعيها، ولا عن ماكياجها الذي يُبرز سحر عينيها.

أمّا زاوية "البار" التي كان يعرض فيها والدي ما لذ وطاب من المشروب فظلّت موجودة، وإن أضحت مع مرور الوقت جزءاً من الديكور. ولا أدري إن كان توقّف والدي عن شرب الكحول بعد اقتناعه بكلام والدته المؤمنة أم أنّه اقتناعاً بكلام الأطبّاء الذين نصحوه بالتوقف عن المشروب خوفاً على صحّة قلبه!؟

لا أعرف إن كنت ورثت إيمان جدّتي أم اكتسبته. ولا أدري إن كان ما فعلته هو نتيجة إيمان حقيقي أم لا ففي العشرين من عمري تقريباً، اتخذت أصعب قرار في حياتي. ذاك القرار لم يلقَ رضا أهلي ولا أصحابي. لماذا؟ من أين أتيتِ بكلّ هذه القوّة؟ يسألونني- الطريق إلى الله سهلة ولا تحتاج إلى قوة. التقرّب من الله يولد معنا بالفطرة، ولا يحتاج إلى منّة. هذا ما كنت أشعر به دائماً.

القرار الذي اتخذته بملء إرادتي، وأنا في نهاية سنتي الجامعية الثانية، كان حرّاً وجريئاً. أن تُقفل فتاة على جسدها في مدينة منفتحة مثل

مدينتي وفي بيئة متحرّرة مثل بيئتي، يُساوي في جرأته قرار خلع صبيّة حجابها في شوارع طهران أو الرياض.

في ذاك اليوم خرجت من البيت كما تخرج نجمة سينما إلى حفلة الأوسكار، وعدت أدراجي مساءً كمزارعة رجعت لتوّها من الحقل. عدت وأنا أغطّي شعري كجدتي "الختيارة"، هذا ما قاله لي والدي. اختفى شعري الناعم الطويل تحت غطاء رأسي، ومعه أيضاً كلّ ملامحي، وأنوثتي.

لكنّني لم أتأثّر، ولم ألتفت إلى مظهري، لأنّ ما من شيء كان يعنيني أكثر من قراري نفسه. خطوتي الجريئة منحتني حريتي الحقيقية. شعرت وقتها أنّ عودتي إلى المنزل مُغطية رأسي بمنديل، لم تكن أقلّ جرأة من عودة صفية سعد زغلول من أوروبا إلى ديارها كاشفة عن رأسها عام 1924، برغم الاختلاف الكبير بيني وبينها، هي السيّدة العظيمة في زمانها.

لا أعرف إن كنت أردت حينها أن أثبت فرديتي إزاء مجتمعي. وإنما ما أعرفه جيداً أنني كنت مستمتعة بما فعلته. تنفست حرية لم أذق طعمها من قبل. عرفت حينها أنّ الحرية ليست "بيكيني ولا "ميني جوب" إنما هي فكرة تنبع من دواخلنا ونذهب بها بعيداً. بعيداً جداً من أجل تحقيقها من دون خوف أو مساومات...

من تختار أن تُغطّي جسدها بقرار شخصي بمعزل عن آراء الآخرين فيها هي حرّة مئة مرّة أكثر ممّن تخلع ملابسها إشباعاً لرغبة أحدهم في رؤيتها عارية، أو شبه عارية. وهذا ما ينطبق أيضاً على المرأة التي تخلع ملابسها بقرار شخصي بمعزل عن آراء الآخرين...

أحبّ جرأتي ولم أندم إلى الآن على قراري. لكنني أعترف أنني لم أنجح يوماً في أن أجعل من القماش الذي يُغطّي شعري جزءاً منّي. إنه الصراع الذي ما زلت أعيشه، أنا الفنانة المتحررة.

لقد عرفت أخريات يتعاملن مع غطاء رؤوسهن وكأنّه عضو من أعضائهن. تماماً كالرأس واليدين. فهو لم يحفر في دواخلهن الهوّة التي حفرها في داخلي أنا.

تحدثتُ معهن وتقرّبت منهن وعرفت أنّهن يعتبرنه "شعرهن وليس مجرّد غطاء للشعر. ورأيت أنّ حجابهن يمنحهنّ ثقة أكبر بأنفسهن. وبدلاً من أن يستغربن أشكالهن به، صرن يستغربن حالهن من دونه. وأما إذا خلعنه أمام أحد فيشعرن أنهنّ صلعوات. أو ربما عاريات.

إنّ أغرب ما سمعته في حياتي هو ما أسرّت لي به إحدى المحجبات، اللواتي تعرفت إليهن في النادي الرياضي المخصص للنساء، قائلةً إنّها تُحبّ نفسها بالحجاب أكثر لأنّ زوجها يُفضلّها به حتى داخل منزلهما، وأنّه لا يُستثار إلاّ عندما يراها فيه، وخصوصاً بين الناس. وعندما يجتمع بها منفردين في غرفة نومهما، يُخلِعها إيّاه بيديه وكأنّه يُخلعها ثيابها. أو بمعنى آخر كأنّه يُعرّيها. لم تقدر على أن تشرح لي سبب ذلك، وإنما قالت إن زوجها يستشعر فحولته بمجرّد أن يلمس شعرها "المُحرّم" على غيره. لم تعرف أن تُعبّر بالقول إنّ زوجها يُعاني من الفتيشية، وأنّ المنديل وحده أصبح مثله مثل أيّ جزء آخر من البدن، أو بمعنى آخر "فتيشاً" كما يقول فرويد ليدلّ على كلّ غرضٍ يغدو رمزاً للمرأة المحبوبة.

أمّا أنا، فالحال عندي مختلف تماماً... لم يحبّ أحدٌ ممّن أعرفهم المنديل، الذي لم أصل يوماً إلى مرحلة أعتبره فيها جزءاً منّي، من جسدي.

وبعد خمسة أعوام من ارتدائه، لم يستطع هذا الزيّ أن يُصبح شيئاً منّي. أضعه وأحسّ به يُزنّر رأسي تماماً كما يُزنّر الحزام خصري. مع هذا لم أفكر قبل هذا اليوم بخلعه، بالرغم من توقعات الكثيرين، وخصوصاً زملائي وأساتذتي، والفنانين الذين عرفتهم لاحقاً أثناء عملي في المحترف الفني كمعلّمة رسم، وخلال مهنتي كفنانة.

اليوم شعرت بحجم الشرخ الذي خلّفه فيّ هذا الشيء الذي أضعه على رأسي. لو كنت أضاهيها أنوثة وجمالاً لما غدا هذا هو حالي.

هي مازالت موجودة أمامي، وأنا مازلت أتفكّك على نحو يُصيب بالدوار.

"عفواً دوموازيل، هل تريدين شيئاً"

"نعم. أريد كوباً من عصير الليمون، مع ثلج لو سمحت...

ناداني النادل دوموازيل. راحة طفيفة أشعر بها. قال لي "آنستي"، ما يعني أنّ أنوثتي لم تنعدم بعد. الناس يعاملونني كامرأة. الحمدلله! مازلت امرأة... ولكن أيّ امرأة هي أنا؟

كيف يُرى إلى امرأة من غير جسدها؟ طبعاً هم يعتقدون أنني أعيش "حياة مُعطلّة"، على حدّ تعبير الشاعر عبده وازن.

إنهم يعتقدون أنّ جسدي معطّل الوظائف وإلاّ لما ركنته في قبو من القماش. لكنّهم لا يعرفون أنّ تحت هذا القبو البارد بركاناً يغلي.

أعتقد أنني أقضي أيامي كغني بخيل... أملك ثروة وأخفيها. أخفيها عن أعين الناس، وعن عينيّ أنا أيضاً. أخفيت كلّ شيء حتى نسيت كلّ ما معي، وصار الجميع يعاملني معاملة الفقير...

مثلي كمثل البخلاء، أخبّئ ما لديّ ليوم لا أدري متى يأتي أو إن كان سيأتي اصلاً. لا، لا أقصد البخلاء، بل الخبلاء. لست أنا من يقول ذلك. بل فولتير نفسه هو من قال إنّ "التقشّف هو ضربٌ من الجنون" وأنا لا أعرف إن كنت فعلاً جُننت عندما تقشفت بجسدي...!

صور كثيرة تتداخل في رأسي. تفاصيل صغيرة أذكرها الآن من غير أن أقصد. كلّ شيء يكرّهني بنفسي التي ما عادت كما كانت.

ما يُكدّر عيشي هو أنني لا أحتمل ألاّ أكون جميلة... لا أتقبّل فكرة أن أكون قبيحة.

أعرف أنهم لا يرونني جميلة وفي الوقت عينه يُشككون في عفتي. يعتقدون أنّها عفّة القبيحات. هم لا يعرفون أنني أعاني ألف معاناة ومعاناة حتى أثبت للعالم أنّني موجودة... ولا يعرفون كم تحملت لكي أفرض إنسانيتي في مجتمع عربي ذكوري، بدلاً من أنوثتي.

ولكن من عساه يفهمني؟. ربما خسرت الإثنتين معاً، أنوثتي... وإنسانيتي.

ها هنّ فتيات يُشبهن الكائنات المتحولة بشفاههن المنفوخة وأنوفهنّ المبتورة وعيونهن الزجاجية، يعتقد الناس أنّهن جميلات بينما لا أحد يُعيرني انتباهه. جمال المرأة ليس أكثر من شعر "مفرود" ومفاتن أنثوية ظاهرة...

* * *

تلك المغرورة تسترق نظراتها خلسة... تبتسم فتبين أسنانها التي تميل إلى الزرقة من شدّة البياض. هذه الزرقة الخفيفة ربما خلّفها ضوء الليزر الذي استخدمته لتبييض أسنانها. حتماً هذا البياض كلّه لا يمكن أن يكون طبيعياً وإن قضت حياتها كلها من دون أكل وشرب...

تُغمض جفنيها ثم تفتحهما بقوة لترميه بنظرة جديدة قبل أن تنسحب عن الطاولة. لا بدّ أنها تعطيه إشارة للحاق بها إلى الحمّام.

أشعر كأنها تكرهني، أو ربما تكره ما أمثّل ومن أمثّل. لديّ اعتقاد أنّها تكره الحجاب والمحجبات، لا أدري لماذا.

هي تقف فجأة. أراها الآن في شكل أوضح. أتأملها وأكاد أُصاب بنوبة قلبية...

الوقحة ذات الشعر الأسود الكثيف ترتدي بلوزة بيضاء شفافة بلا أكمام وتنورة زهرية اللون لا تتعدّى حجم الكفّ الصغيرة.

يا إلهي!! ما يظهر من جسدها أكثر مما هو مستور. تقف تحت أشعة شمس ما بعد الظهر وهي تتوهّج كقطعة من ذهب... "طبعاً، هذا من فرط ما أغدقت على جسدها من كريمات ترطيب وتلوين باهظة الثمن"

حضورها طاغٍ كصحراء عظيمة. وما أنا بوجهي الأبيض، المقفل من كل الجهات، سوى مكعّب ثلج كالذي أخرجته للتوّ من كوب العصير كي أبرّد به يديّ... وأعصابي.

"الصحراء" بجسدها الممشوق ولونها الرملي وشعرها الأسود المُفرد على كتفيها واقفة، وأنا أعدّ الدقائق... أحسّ اللحظة دهراً.

إنها تبتلعني. وأنا أجلس أمامها ذاهلة وساخطة.

للحظات شعرت بأنني أكثر هشاشة من فراشة. أنني كائن ضئيل. أنني حبّة رمل لا تُرى.

ملابسها الحقيقة تكشف الجزء الأكبر من جسدها. إنها تكاد تطير من فرط خفتها. والأصحّ خفة ملابسها.

أما أنا فأبدو ثقيلة. جاثمة على هذا الكرسي مثل كيسٍ من الخيش. لا أطيق النظر في الشمس التي تزيدني احتراقاً وتوتراً. الشمس تُلقي خيوطها على ظهري كحبالٍ ثقيلة. وأنا أتململ في مكاني.

آآآآه هـ... لم أعد أطيق شيئاً. ضيق وحرّ وغضب... مشاعر كثيرة تنتابني منذ أن وقفت. لحظة لا تتعدى الثانية أخالها أطول من يوم. اكتشفت الآن أنّ الأوقات لا تُقاس بطول الزمن أو قصره، وإنما بحجم وقعها على النفوس.

الكون كلّه يتآمر عليّ... لا أدري لماذا! الطبيعة أيضاً تقف الى جانبها، وتُرسل إليها نسمة هواء، نسمة لا أدري كيف ومن أين هبّت

في يوم حار جداً من أيام شهر آب. نسمة تنفسها البحر، فبعثرت شعرها الطويل وهي تمشي...

أنظر إليها وأراقب انسحابها المُريب من جلستها. أتذكر فجأة وجوده بجانبي. خفت أن أكون قد أعطيته، بغيابي عنه، فرصة ليملأ نظره منها ويكتشف ما اكتشفته أنا... يكتشف أنها صحراء حارة ساحرة، وأنني مجرّد مكعب ثلج جامد وبارد.

ترفع يدها وكأنّها تودعه بيدها، ومن ثمّ تضعها على أذنها، وكأنها تريد أن تقول له "نتهاتف" ولكن من أين حصلت على رقمه؟ ربما لم أسمع كلامهما عندما جاءت وسلمّت عليه. أو أنها مازالت تحتفظ برقمه، أو ربما التقيا قبل أن نأتي إلى هنا واتفقا على أشياء أخرى لا أعلمها. وماذا يمنع؟

انسحبت. غابت. اختفت. ربما تنتظره في الحمّام. أظنّه يودّ اللحاق بها. أتأملّه بخوف. أنتظر أن يستأذن مني ليدخل الحمّام حيث تنتظره هناك.

قلبي يدّق بقوة. خوف يجعل حرارتي تعلو وتنخفض كموجة ترتطم بصخرة. وهو لا يبارح مكانه.

لم يلحق بها... الحمدالله...

عشر دقائق من لحظة خروجها إلى الآن. أصدقاؤها أيضاً غادروا المكان.

هي لم تعد وهو لم يلحق بها. هي لم تدخل الحمام أصلاً.

أحس براحة طفيفة، لكنني أحتاج إلى ما يُريحني أكثر. "هل تُحبّني؟" يُجيبني نعم. "أقصد هل تحبّني أكثر ممّا أحببتها؟"، أكرّر السؤال بصيغة أخرى. أسأله، وأخاف أن يكون ردّ فعله قاسياً كما في كلّ مرّة. "أحبّك أكثر من أيّ حبّ مضى ومن أيّ حبّ قد يأتي"

الجواب مُقنع، لكنّه لم يُقنعني أنا. جوابه بعثرني كلّي. أيُحبني فعلاً إلى هذا الحدّ؟ هذا المحامي المُعتاد على استخدام العبارات القوية والمُقنعة يُفحمني في كلّ مرّة أدخل معه في شجار أو حوار... لكنّه يُجيبني فعلاً. ولكن لا، لا أدري إن كان يريد أن يُريح أعصابي فقط ويُبدّد شكوكي بعدما شعر بريبة ما خلال هذه الجلسة. أو أنّه أحسّ بقلّة ثقتي بنفسي، فأراد أن يُقوّيها. أو ربما شعر بغيرة المرأة التي فيّ فتفهّمني.

مع أنّني نثرت شكوكاً كثيرة حول اعترافه لي بحبّه الكبير، لكنني لن أخفي أنّ كلماته كادت توقف قلبي. أود لو أعانقه وأقبّله كما قبلته تلك الوقحة، قبل قليل.

ولكن هل من المعقول أن ينتهي كلّ هذا الصراع الذي عشته اليوم بكلمة حلوة منه. فالمشكلة أصلاً ليست فيه وحده، ولا فيها وحدها، وإنما فيّ أنا. هل كانت الغيرة لتعميني لو أنني لم أستر أنوثتي، لو أنني لم أكن محجبة؟ هل كنت سأشكّ فيه لو أنني أهبه من جسدي ما يحبّ؟ لا أعتقد. هذه ليست أوّل مرّة أعيش فيها مع نفسي مثل هذه المعارك الدونكيشوتية، لكنني أعترف أنّها المرّة الأعنف. يجب أن أضع حدّاً لهذه المسألة قبل أن أُصاب بالجنون. يجب أن أسير على خطٍّ واحد وواضح في حياتي. يجب أن أتخلّص أولاً من سبب مأساتي...

في غرفتي

منذ أن عدت إلى المنزل وأنا أشعر بضياع رهيب. تلك المرأة لم تخطفه منّي، وإنما خطفتني من نفسي.

أنا فعلاً ضائعة... لم أفكّر في أن يشغلني موقف كهذا، لا سيّما قبل أسبوع واحد من افتتاح المعرض. لماذا سمحت لظرف مثل هذا أن يتغلّب عليّ؟ فأنا طالما اعتبرت أنّني إنسانة قوية، وكنت أقول دائماً إنّ الإيمان والفنّ حين يجتمعان في نفس واحدة، فمن المفترض أن يغدو صاحبها معزّزاً بقوة داخلية عظيمة. لكنني لا أفهم حقيقة معنى هذا الإضطراب الذي أعيشه؟ لماذا أسمح لنفسي بأن تتواضع إلى هذا الحدّ؟

إنني أؤمن بأنّ الحياة تهب لكلّ وافد جديد إليها سراً خاصاً به، إما أن يكتشفه أو أنه يقضي حياته من غير أن يعرف أنه يحمل في ذاته سرا في الأصل. وأنا وُلدت طفلة حُبلى بسرّها وحلمها، فلماذا أتخلّى عن كلّ أفكاري السامية لمصلحة ما هو عادي ومبتذل؟

لقد أمضيت أعواماً بين الأقلام والألوان لا أرجو شيئاً من الحياة سوى بلوغ سرّها، فكيف أتنازل فجأة عن عالمي، وبهذه السهولة؟ لماذا كلّما ملأتني رغبة في التحليق كطائر طليق، أجدني أفقد توازني مرّة واحدة وأقع في مستنقع الأفكار اليومية البسيطة؟

أستعيد ما حصل معي في المقهى، أتساءل: أيُعقل لمن اتخذت من الأجساد مهنتها- ومتعتها- أن يهزمها جسد؟ لو لم تكن تلك المرأة تملك ذاك الجسد الأنثوي الجميل هل كانت لتسحقني؟

لقد وضعتني لأول مرّة في مواجهة نفسي. جعلتني أعترف بغيرتي، ولكن أيّ غيرة هي؟ وممّن؟ من صديقة قديمة قد تسرق مني حبيبي، أو من امرأة جميلة خسرت أنوثتي أمامها.

لا أعرف. لكنني أدرك أنّه ما كان ينبغي لفنانة مثلي أن تحرق نفسها بمثل هذه الأفكار، لكنّ الموهبة مع الأسف لا تحمي صاحبها من الغيرة. بل إنّ غيرة الفنان غالباً ما تكون أشدّ اتقاداً من غيرة الأشخاص العاديين. فهو وحده من يصل إلى مرحلة يشعر فيها للحظات أنّه "خالق"، يُبدع الجمال ويُسيطر من خلاله على الآخرين. وهذا ما يجعله رافضاً أن يكون متساوياً مع أيّ شخص آخر، وغير متقبّل فكرة وجود من يُضاهيه تميّزاً وإبداعاً.

لا يُمكن أن أستمرّ في اعتقال جسدي مع كلّ محبتي له. فالجسديات تأسرني، بل تسكنني، وكأنها لغز مثير من ألغاز هذا الكون العجيب. سحرتني، ومازالت، حتى بتّ مولعة بها. حاولت التحرّر منها بحبس جسدي، فتعلقت بها أكثر.

لم أجبن يوماً عن الإعتراف بأنّ معظم انطباعاتي عن الأشخاص أكوّنها من نظرتي إلى أجسادهم. فأنا أظنّ أنّ للجسد دوراً تنبؤياً في حياة صاحبه، وأحياناً يكون هو حامل قدره أيضاً. قليلون هم الذين يوافقونني رأيي هذا، لكنني أصدقه جدا. ومُقتنعة به لمجرد أنني أحسّه...

لم أعد أذكر كيف تسلّلت إليّ هذه النظرية، وإنما أعرف تماماً أنّها تكرست بُعيد قراءتي في الفنون والآداب، وأذكر على وجه التحديد رواية سيلين "سفر في آخر الليل فيها لاحظت أنّ البطل الراوي باردامو ومن

خلفه الكاتب سيلين- كلاهما طبيب- يُقدّمان نظرة عيادية حول الجسم الإنساني، ليتحوّل معهما الجسد إلى نصّ. إنهما يعرضان وصفاً دقيقاً لمجموعة تفاصيل جسمانية تومئ مرّة بموت صاحبها، ومرّة أخرى بنجاته. هي الرواية التي كوّنت تقنيتي الخاصة في الرسم أيضاً. الجسد هو النصّ، فيه تُكتب الأقدار وتُسبّب الأسباب.

بعدما فرغت من قراءتها أحسست أنني وجدت شيئاً كان تائهاً مني. وهذا هو نوع الفنّ الذي أبحث عنه. هو الفنّ الذي يُغيّرني، يُبدّل شيئاً في أفكاري أو يُضيف إليها. هو ما يترك أثره عميقاً في نفسي.

إنّ الفنّ الذي لا يقتحم جسدي كخَدر ويسري داخل عروقي مُسيطراً عليّ كلّي، لا أراه فناً. رواية سيلين هي من الإبداعات التي سكنتني، وولّدت لديّ نظرة أخرى للجسد ولمعناه. قرأتها وأنا طالبة سنة أولى في قسم الفنون التشكيلية بعد فيلم وثائقي شاهدته على قناة "فرانس 5" عن حياة الكاتب الإشكالي "المنبوذ" بتهمة معاداته السامية. علّمتني هذه الرواية أسلوباً جديداً في رسم الأجساد. تصوير الإنفعالات الجسدية أهمّ من تفاصيل الجسد نفسه.

هكذا، صرت أحاول أن يكون رسمي للأجساد مبنياً على أساس فلسفي ونفسي وتحليلي. فالجسد لم يعد بالنسبة إليّ تابوت الروح، وإنما مرآتها. ولكن لا أعرف كيف استطعت بعد اكتشاف خطير كهذا أن أجعل جسدي مُحجّباً مع علمي بأنّني أملك في داخلي روحاً حرّة جميلة شفافة!

لماذا أخنق نفسي دائماً بهذا السؤال الذي خنقني به الناس في المرحلة الأولى من حجابي؟... أذكر أنني في سنتي الجامعية الثانية بدأت أفكّر في الحجاب، وظللت لفترة معينة أتأمّل كلّ فتاة جميلة قد أصادفها

محجبة، أتساءل عن السبب الذي دفعها إلى خطوة مُماثلة. صرتُ أرسم وجوه نساء محجبات، أتأملهن، ومن ثمّ أرسم وجهي بخمار يُغطّي شعري. تعايشت مع الفكرة التي سكنت مخيلتي، إلى أن نفذتها فجأة من غير أن أفكّر في تداعيات هذه الخطوة التي مُنحت بُعداً فكرياً وإيديولوجياً كبيراً. كنت راضية عن نفسي لأنني أسلك طريقاً معاكساً لما تربيت عليه، وكان لديّ يقين أنّ خير الدنيا والآخرة قد أجده فيه.

المواجهة حينها لم تكن مع نفسي، أمام المرآة أو على الوسادة كما أنا مُعتادة دائماً. إنما مواجهتي الكبرى كانت مع الآخرين. اتهامات كثيرة أُلصقت بي، لكنني كنت بريئة منها. فأنا لم أغطّ جسدي إرضاءً لحبيب، كما اعتقد الكثيرون، ولا من أجل تيار ديني سياسي انتسبت إليه، ولا إدانةً مني للفتيات المتحرّرات جسدياً... كلّ ما كنت أحسّه أنّ حجابي كان خليطاً من إيمان فطري ممزوج بحبّ التجربة والإكتشاف.

فأنا لم أكن يوماً لامبالية تجاه الأديان التي كانت تمنحني إجابات لم أجدها في كلّ كتب الفكر والفلسفة التي قرأتها من مكتبة أمي، أو استعرتها من المكتبات العامة. كان بعض أصدقائي يحاولون إقناعي بأنّ الله غير موجود، وأنّ هذا الكون "العظيم وُجد بمحض صدفة. وأنا كنت متيقنة من أنّ الصدف لا يُمكن أن تخلق كلّ هذا النظام، هذه الدقّة في النظام. كان بعضهم يُطالبني ببراهين تُثبت لهم وجود إله هو أصلاً واجب الوجود كما كانت تقول لي جدتي. آمنت بالله بإحساسي وحدسي، والحدس كما يقول برغسون نفسه أهمّ وسائل المعرفة، حتى أنّه أكثر أهمية من الحقائق والوقائع. وفي قربي من الله عثرت على حياة متوازنة كنت أبحث عنها. لم تُغرِني حياة متحرّرة تماماً من معانيها الروحانية والدينية لأنّها غالباً ما تجعل أصحابها مُنساقين إلى عبثيات تسرق من صميم حياتهم أسمى معانيها.

لم يفلح أحد في زعزعة إيمان كان ينمو داخلي مثل زهرة بريّة، من غير أن أتكلّف عناء الاهتمام بها. "من حقكم أن تستخفوا بأفكاري، ومن حقي أن أكون ما أريد هكذا كنت أردّ على كلّ من كان يُحاول أن يُقلّل من شأن فنانة تعتقد بدين وتلتزم به.

ومع هذا لم تكن فكرة الأديان تجذبني بمقدار انجذابي لمعنى الإيمان الذي يمنح القلب سكينة عجيبة. وما اتخذت من الطقوس يوماً سوى وسيلة أصل بها إلى جوهر الإيمان وروحه.

* * *

حجابي كان بمثابة كفاح خفيّ أمارسه كي أحقّق من خلاله بطولة صامتة. تجربة تمنحني الصلابة من غير أن تنزع منّي الوداعة. لم أكن أعرف كيف أفسّر لهم فلسفتي الخاصة عن حجاب المرأة، وأنا مُقتنعة في قرارة نفسي أنّ شعرها ليس عورة بل مكمن جمالها. لم أكن أعرف، ولم أحاول. فالقضية داخلية إلى حدّ أنّني أعجز عن إيجاد صياغة أو تعبير دقيق لوصفها. لهذا، كنت أنزعج من الذين يُكرّرون الجاهز من الكلام والعبارات عن مسألة الحجاب. ومعظم صديقاتي، إن لم أقل كلّهن، يرين في الغطاء الذي تضعه المرأة على شعرها إلغاء لشخصيتها، بل لهويتها الأنثوية، إرضاء لمجتمعات بطريركية أو أديان ذكورية تبغي تحجيم المرأة وتصنيفها كإنسان من الدرجة الثانية. النظرة إلى المرأة المحجبة في مجتمعات "لا كريم دو لا كريم أو نخبة النخبة ليست مستحدثة. وتعليقات مَن حولي وربطهم المظهر بالجوهر كانت تُعيدني إلى حادثة قرأتها عن أمّ كلثوم التي هاجمتها "روز اليوسف" في بداية مسيرتها على غلاف مجلّتها الشهيرة بمانشيت ساخر عنوانه "الأوركسترا المعممة"، وجاءت المقالة بُعيد تقديم أم كلثوم أولى حفلاتها الغنائية وهي ترتدي ما يُشبه العمّة، يُرافقها والدها

وشقيقها، المنشدان المعمّمان. مشهد هذه العائلة التي وفدت من قرية صغيرة إلى عاصمة الفنّ العربي في ذاك الوقت لم يُقنِع بعض النخب الثقافية والفنية، لكنّ الموهبة كالشمس، يبقى نورها نافذاً وإن غطّتها السُحُب.

والمفارقة أنّ الحجاب اليوم لم يعد مرتبطاً بنساءٍ متواضعات العلم والثقافة، بل إنّه عاد في آواخر القرن العشرين ليحتلّ المشهد الاجتماعي العربي بعدما غاب عقوداً جرّاء ثورات وحركات نسائية تحرّرية، مطلع القرن الماضي. ومع هذا، لم تتقبّل بيئتي فكرة أن تُصاب فتاة مثلي بعدوى الظاهرة المنتشرة كأنفلونزا بين النساء العربيات، إذ كيف لمن تعشق الأجساد وتبرع في رسمها أن تنبذ جسدها وتعتبره "عورة"؟

هم اعتقدوا أنّ من المستحيل أن أستمرّ في تناقض فاضح إلى هذا الحدّ. أمّا أنا، فلم أكن أشعر في داخلي إلاّ بحالة من التوازن الذي كان ينعكس على نفسيتي وسلوكي وأعمالي الفنية...

كنت أحسّ أنني بحجابي صرت كائناً، لا جنساً. غدوت أكبر من أن يحدّني جسد أو إسم.

لكنني في أحيانٍ كثيرة أتعجّب من حياتي التي تعجّ بهذا الكمّ من المتناقضات. ولو أردت أن أضع لهذه الحياة التي أعيشها عنواناً، لما وجدت أفضل من "بوركيني"، ذاك الإسم الذي اشتقته الأوسترالية المسلمة من كلمتين متناقضتين "بُرقُع" و"بيكيني" لتُطلقه على زيّ سباحة صمّمته لنفسها ولكلّ امرأة يمنعها حجابها من مرافقة أصدقائها وأسرتها في رحلاتهم البحرية. وكم شاهدتُ هذا "البوركيني (البيكيني الشرعي) لدى صديقات لي محجبات، يعِشن في بلدان لا مسابح نسائية فيها. لكنني لم أستطع أن أتصوّر نفسي أرتديه يوماً. فإما البيكيني في مسابح النساء، أو

لا نزول في الماء. فما أحبّ في السباحة هو أن يغمرني الماء وتتلألأ حبّاته على جسدي. أنا أعيش فعلاً بين عالمين، بين ملابسي المحتشمة وأفكاري المتحرّرة، بين حجاب رأس يُغطّيني وأجساد عارية تستهويني، بين "البُرقع" و"البيكيني

هكذا محوت جسدي وآثرت ظلمته كي أبثّ الحياة في أجساد أكثر نوراً وجمالا وحقيقة. أجساد تحيا ولا تموت. فانسدل الحجاب على جسدي، بينما الأنوار كلّها لا تزال مُضاءة داخلي. ضوضاء العالم الخارجي لم تمنعني من الإصغاء إلى إيقاع الطبيعة وموسيقاها. إلى جمال الحياة وألوانها. إلى ذاتي وأهوائها. صرت أرسم أجساداً بديلة، لا تعيا ولا تموت.

الكلام الذي سمعته كان قاسياً، وكثيراً. لكنّه ظلّ مجرّد "كلام، كلام، كلام"، كما تقول داليدا في أغنيتها الجميلة... لم أكن أردّ على أيّة تعليقات، مهما بدَت مُستفزّة. ربما لأنني كنت على يقين بأنّ حجابي ليس إنكاراً لجسدي، ولا كرهاً به. اخترت الصمت وتركت الكلام للوحاتي. هكذا أعلنتها بصريح العبارة أنّ الجسد كان ومازال هدفاً في حياتي. فأنا أحببت جسدي كما أحببت كلّ ما هو جميل. ولا أعتقد أنّ أحداً أحبّ جسده كما فعلت أنا. لم أكره فيه شيئاً، ولم أتمنّ فيه زيادة أو نقصاناً. إلاّ أنّ البغضاء كما يقول كيركغارد هي الوجه الآخر للمحبّة. وهذا ما لم يستطع أن يفهمه أهلي وأصحابي وكلّ أولئك الذين اعتبروا خطوة تحجّبي ضرباً من الجنون، وبين الجنون والمغامرة شعرة. وما وجده غيري جنوناً، وجدته أنا نوعاً من المغامرة.

أن أكون أنثى وأحجب مكامن الأنوثة فيّ، أن أنسى جسدي وأصُبّ كلّ اهتمامي في أجساد أخرى هما أكبر مغامرات حياتي، هما حقاً أخطر مغامرة في حياتي.

لـمّا أردت إكمال تخصصي في الرسم، اخترت "الجسد" مادة بحثي من دون أن أتكلّف عناء التفكير في الأمر. كان الأمر محسوماً بالنسبة إليّ. كنت أشعر أحياناً أنّني امرأة غريبة، بها شيء من العُصاب الذي لن تتخلّص منه إلاّ ببلوغ حقيقة ما. كنت أبحث عن سبيل الخلاص إلى المعلوم. كنت أتمنى لو تتحوّل صيغة الشكّ في كلامي إلى صيغة تحقيق وتأكيد، ولو لمرّة واحدة في حياتي... وبما أنّ "الحقيقة هي امرأة، وعلى المرء ألاّ يستخدم القوة معها"، مثلما يقول نيتشه في كتابه "في ما وراء الخير والشرّ"، وجدت أنّ الطريق المثلى لبلوغها هي في ألطف الأشياء على الإطلاق: الألوان. واكتشفت أنّ الجسد هو الشيء الوحيد القادر على التعبير عن "الحقيقة"

لا أذكر كيف وصلتُ أو كيف وصلتْ إليّ هذه الخلاصة التي تجلّت وسط ظلمة أفكاري كنور مُبهر. لا أعرف من أيّ سماء بُعثت إليّ. الأجساد أضحت عالمي. أغوص فيها، أفكّر في جماليتها، وضعياتها، رمزيتها، جوهرها... أرسم كلّ شيء، الطبيعة، المدن، الوجوه... لكنّ أكثر ما أجد متعة في رسمه هو الجسد. أرسمه وكأنّه النقطة التي انطوى فيها العالم الأكبر. أرسم الأجساد مرّة محتجبة، وأخرى مكشوفة. ومع أنني أتبع في رسم الجسد الأنثوي تقنية التظليل التي لا تكشف كافة تفاصيله، بل تُعبّر عن روحه وجمالياته أو تعقيداته النفسية، صرت أميل شيئاً فشيئاً إلى اختيار أجساد طفولية وطريّة لأنّ الحقيقة تبدو فيها أقوى، والجمال أوضح. وهذه لم تعد فلسفتي في الفنّ فقط، وإنما في الحياة أيضاً. لهذا أراني أحاول الحفاظ على الطفلة التي في داخلي، لأنّني أعلم أنّ الحقيقة الكبرى كامنة فيها.

ولا أدري إن كانت علاقتي بالرجل الذي أحبّ تحكمها هذه النظرية أيضاً. ففي كلّ مرّة يقترب فيها منّي ليتحسّس جسدي، وإن

بملامسة خفيفة من فوق الملابس، أجدني أتململ وأهرب منه بحجة ساذجة.

مشاعري الحسيّة التي تتوحّش في ظلمة غرفتي تتأكّل أمامه لأتحوّل إلى قطّ أليف لا يحلم بأكثر من الغنج والدلال. وأنا لم أتيقّن بعد، ما إذا كان تفادي لقائنا الجسدي سببه الخوف من اقتراف الخطيئة أم أنّه نتيجة خوف داخلي من أن أخسر هذه البراءة التي تُغلّفني، والتي أعتقد أنّ سرّ موهبتي قابع فيها.

أرسم الجسد بما في مخيلتي من فانتسمات عنه. أرسمه بشغف وشوق وحنين. أرسمه كمن يُناديه ويرغب فيه. إنها هي الرغبة التي ألتمسها في لوحاتي بعد الإنتهاء منها. الجسد الذي أرسمه لا يُشبه أيّ جسد في أيّ لوحات أخرى.

كم أنا متملّكة، في حبّي لجسدي! أريده لي وحدي. لا يراه أحد. لا يلمسه أحد. أنا وحدي أراقب أجساد الآخرين، وألاحقها. أكتشفها وأعيش معها. وأحاول دائماً أن أربط بينها وبين ذوات أصحابها علّني أستشف حقيقة العلاقة التي تربط هذا الجسد بصاحبه. فالجسد لا أراه كما يراه الآخرون. ذاك هو سرٌّ أستمتع جداً في حلّ تعقيداته.

في الروايات التي أقرأها أيضاً، أراني ألاحق التفاصيل التي تقودني نحو معرفة أعمق بأجساد أبطالها. وغالباً ما أكون مشدودة إلى الحوارات التي تتضمنها بلسان شخصياتها، علّني ألتقط شيئاً من عصب الشخصية وعلاقتها بجسدها. أفكار الشخصية لا تعنيني بقدر ما يهمني انفعالها.

وأحبّ الروائيين إلى قلبي هم الذين أولوا الشقّ الجسدي اهتماماً كبيراً في بناء شخوصهم. هكذا أنا، أقرأ الأدب وكأنني أشاهد فيلماً

سينمائياً... أتأمّل اللوحات وكأنني أستمع إلى سيمفونية موسيقية. حاسة واحدة لا تكفيني. أحتاج حواسي كلّها لكي أبدع، ولكي أستمتع بإبداع غيري أيضاً.

في الرسم لي طريقتي الخاصة. أرسم معظم لوحاتي على إيقاع الموسيقى الكلاسيكية التي أتصوّر نغماتها ألواناً أستوحي منها تفاصيل تُغني رسمي وتزيده شاعرية. فاللوحات بالنسبة إلي لا تُرى فقط، وإنما تُسمع أيضاً. وكم أرغب لو أنّ الناس ينتبهون إلى غنائية لوحاتي، وإلى بعض النوتات الموسيقية التي تسرّبت إليها أثناء تنفيذها. ومع توقعات الكثيرين لي بالوصول إلى مرتبة عالية في مجال عملي كفنانة تشكيلية، فأنا لن أقتنع بنجاحي ما لم أسمع زوّار معرضي يتهامسون قائلين: "إسمعوا هذه اللوحات. إنها تتكلّم فالرسم هو الشعر الصامت، هكذا عرّفه الشاعر الغنائي اليوناني سيمونيدس، وهذا ما أصدّقه أنا، هاوية الشعر وعاشقة الرسم.

الجسد الأنثوي هو من الأشياء القادرة على ترجمة هذه الغنائية التي أطمح إليها رسماً. الجسد، هذا الصنيع الذي أخاله صُبّ في قالب مثالي وخرج منه مسكوباً بدقة، لا شائبة فيه، هو من أكثر الأشياء القادرة على التعبير والكلام. إنّه يُمثّل لي "وادي عبقر الذي منه أستلهم أفكاري وصوري وأسئلتي، وأحياناً أجوبتي.

ولا يراودني شكّ في أنّ الجسد هذا يحمل في سحره حقيقة كبرى، وربما أجوبة عن أسئلة وجودية معقدة. فكلّ جزء من أجزائه يكشف عن حقائق كونية كبيرة، من الجمال إلى الضعف والرقة والجاذبية والتوالد والاستمرار... وإنّ أكثر ما أحبه في المرأة جسدها، فهو حتماً أوّل ما يلفتني إليها، ويجذبني إليها قبل روحها أحياناً. أوليس الجسد قبّة الروح؟

فأنا لا أنظر إلى المرأة بعين امرأة. ولا بعين رجل طبعاً. وإنما أراها بعين الفنان، الذي لا جنس له. فالفنان، كما أراه أنا، هو كائن متأرجح بين عالمي الذكورة والأنوثة. وإن ولد رجلاً، يظلّ الفنان في أعماقه امرأة لم تكتمل. فيقضي حياته ممجّداً البعد الأنثوي في ذاته من دون أن يرى ضيراً في أن يُفاخر بأحاسيسه الأنثويه.

أمّا الرجل العاديّ فهو امرأة ناقصة. كائن يعيش حياته سجين مصادفته البيولوجية. فيعمل طوال حياته على أن يكبت الأنثى التي في داخله ويدفنها في أعماق ذاته خوفاً على رجولته من أن تهتزّ في عيون الآخرين.

موزار هو من أكثر الموسيقيين الذين أسمعهم أثناء الرسم. وموسيقاه هي في الكثير من الأحيان مصدر إلهامي. وفي كلّ مرّة أسمعه، تُراودني أفكار بأنّ موزار لا يمكن أن يكون في أعماقه، رجلاً كبقية الرجال. فالموسيقى الملائكية الرقيقة لا يمكن أن يصوغها الا مبدع يعرف مشاعر المرأة ويعيشها بروحه.

جسد المرأة الذي اكتشفته بعين الفنانة أضاء لي الكثير من الحقائق الملتبسة، والمجهولة أحياناً. وبعد اقترابي منه عرفت أنّ هذا الجسد الرقيق يفعل بالحياة ما تفعله الألوان في لوحة تشكيلية. وقد تبلورت معرفتي بجسد المرأة، ليس من خبرتي الشخصية كامرأة، وإنما من تجاربي مع أجساد أخرى عرفتها في الواقع أحياناً، وفي أحيانٍ أخرى في الأعمال الإبداعية، رسماً وكتابة.

تُلاحقني الأجساد كشيء يُشبه الإلهام. أرسم النساء وكأنني أرسم الحياة بكلّ ما فيها من إغراءات وتعقيدات وجمال وانهيارات. أضحى الجسد هو الشعر والنثر والفلسفة التي أكتبها بريشتي وألواني.

أرسم الجسد لأنني أحبّ الحياة، والموسيقى، والأدب، والجمال... ولأنني أبحث عن الحقيقة أيضاً.

أيّ هذيان هذا! لا أحد يُصدّقني. أيّ حقيقة أبحث عنها في الوقت الذي أبدو فيه ملتزمة بطقوس دين يفرض عليّ حقيقة واحدة لا مجال للمناقشة فيها؟ لا أدري! لكنني صادقة في ما أقول: إيماني فطري، وقلقي أيضاً...

إيماني بالله لم يحدّ يوماً من رغبتي في البحث. ومع أنّ غشاوة دائمة تلّف السبب الحقيقي وراء حجابي، إلاّ أنني لا أخفي إيماني العميق بالله. وأنا أعتقد أنّ الإيمان الصلب هو الذي يتأتّى من البحث وليس من الخضوع. الأديان تحثّنا على التأمل والتفكير والبحث، وإن كان رجالها يوهموننا بالعكس خوفاً من أن يتصادموا بأشخاص قد يتمردون على بعض آرائهم التي يُطلقونها باسم الله والدين.

إنّ اعتقادي بوجود الله وبرسالات أنبيائه لم يجعلني يوماً مع فكرة الإنقياد التام التي توسّع المفكّر الفرنسي باسكال في مفهومها. بل إنّ البحث كان ولايزال سمة شخصيتي. وكم أتمنى لو أنني أكفّ عن هذا البحث لمعرفتي بأنّ "وحده من لا يبحث يجد"

أحياناً أشعر بأنني تعبت من بحث لامجد، ومن جريٍ غير نافع، ومن محاولات لا أكسب في نهايتها إلاّ المزيد من الاضطراب واللاطمأنينة.

أمام الجسد، تتولّد في نفسي أسئلة كبيرة لم يسبق أن اكتشفت التباسها. أحاول أن أصادف حقيقة ما، أيّ حقيقة، لأنّها مهما بدت صغيرة، لا بدّ من أن تُساعدنا في إضاءة الجوانب المُظلمة من حياتنا المُغرقة في جهلها وضآلتها. أمامه فقط، أحاول أن أبحث عن دوافع التعلّق بهذه الهويّة الجسدية التي اخترتها لنفسي.

الفنّ هو الرغبة. وشغفي برسم الجسد نابعٌ من رغبتي بالجسد نفسه. وخوفي من أن أخسر هذه الرغبة جعلني أمتنع عن كشفه أمام الرجل الذي أرغب فيه إلى حدّ الجنون. كان يُمكن أن أقترب منه، وأن نتلامس ونتواصل جسدياً ككلّ حبيبين. لكنني خشيت من أن أفقد رغبتي بهذا الجسد- الحلم بعد أن أتملكّه. وربما هو الخوف من أن يتملّك جسدي شخص غيري. وفي زيارة والديه الأخيرة، طلبا أن نتزوّج قبل أن يعودا إلى الولايات المتحدّة حيث يعيشان، لكنني رفضت بحجة التحضير للمعرض. ذاك الزواج الذي كان ليُصبح حدثاً أعظم ربما من معرضي الأول هو أيضاً من الأشياء التي لم أحسم أمري في شأنها.

أذكر أنّه لم يُبد حماسة لفكرة والديه، بل فضّل الإلتزام بالموعد الذي قرّرناه سابقاً، أي بعد ثمانية أشهر. لهذا لم يلحّ عليّ في السؤال عن سبب رفضي. لم أخبره يوماً بأنني أستعجل لحظة وصالنا بقدر ما أهرب منها، وأنني أتمنّاها بقدر ما أرتعد منها. وكم تعمّق هذا الإحساس لديّ بعدما قرأت نصوص الشاعر بودلير عن الرسم والرسّامين، والتي يقول في إحداها إنّ الفنان شخصٌ لا يخرج من نفسه، لكنّ الجنس يُخرج أيّ شخص من نفسه. كنت أعيش هذا الصراع بصمت، وقوّة. أردت أن أبقى داخل ذاتي وأن تبقى هواجسي عن الجسد تعروني حتى يظلّ مثل إلهامٍ لا ينفكّ عن مطاردتي.

* * *

يا ليتني أصادف امرأة غيري تعيش صراعاتي حتى لا أتّهم نفسي بالجنون. كثيرون عارضوا فكرة أن أرسم "الجسد"، لكونه موضوعاً شائكاً لا يُناسب امرأة "محافظة" مثلي. وكم كانت تستفزني هذه الكلمة، علماً أنّها لا تبدو في ظاهرها سلبية المعنى. ولكن لطالما أوحت لي

صفة "المحافِظة" بأنها هي التعبير الألطف لكلمة "رجعية" أرادوني أن أتعمّق في الرسم التجريدي أو رسم الطبيعة أو الوجوه... أيّ شيء إلاّ الجسد حتى لا أتعدّى حدودي التي رسمتها لنفسي، بنفسي. لقد أجمعوا على ضرورة أن أبقى في المكان الآمن. لكنهم لم يعرفوا قطّ أنّ تركيبتي السيكولوجية تطغى دائماً على التزاماتي، لأنني ببساطة فتاة متمردة، وإن بهدوء. وربما كان رفضي ارتداء ملابس البحر في بداية سنّ المراهقة هو أوّل شذوذي عن أعراف عائلتي "المتحرّرة" وتقاليدها. وما جاءت فكرة الحجاب إلاّ لتُكرّس هذين التمرّد والرغبة في الإختلاف عن الآخرين في محيطي. ولو لم يكن الحجاب نفسه مغامرة في حياتي لما وضعته، ربما.

ومع أنّ هذه المغامرة لا تناسب ذوي القلوب الضعيفة، وأنا بطبيعتي حسّاسة ومرهفة، إلاّ أنني خضتها. وعشت مراحل "أدرينالينية" صعبة، لكنني ما لبثت أن أدمنتها. هكذا أصبحت غير قادرة على الخروج منها. وأنا متيقنة من أنني لو ولدت في بيئة تفرض عليّ ما آكل وما ألبس، لكنت أوّل المتمردين عليها.

أنا كائن يعشق المفاجآت ويهوى المخاطرة. وأعلم جيداً أنّ الطبيعة التي تسير بنظام دقيق هي نفسها لا تُحب إلاّ من يخرق نظامها، ولا تُمجّد إلاّ من يخرج عن مألوفها مبتكراً كلّ ما هو جديد ومدهش.

رسامة مجنونة ومحجبّة؟ ما هذا التناقض الغريب؟ هذه الإستفهامات لا أعرف سببها حتى الآن. فالفن والثقافة وُجدا كي يُغيّرا المفاهيم المعلّبة ويقلبا الأفكار الجاهزة. لماذا إذاً لا نقبل في الفنّ إلاّ من هو على صورتنا؟ فلنفترض أنني التزمتُ بشريعة وتمسكت بممارسات- لا تضرّ أحداً- خوفاً من مجهول ما، لماذا لا يتقبّل الآخر خيار الإنسان الآخر وعقيدته؟ ولماذا لا يحترم المثقف التزام المؤمن وخوفه؟...

الفنون تمنح المعرفة ولكنها لا تنزع من قلبك الخوف، ولا تمنحه الطمأنينة.

شاهدت ما شاهدت من أفلام السينما، وزرت ما زرتُ من المعارض، وقرأتُ ما قرأت من كتب الفلسفة والروايات، لكنني لم أجد جواباً في أيّ منها لأصغر سؤال يلحّ عليّ منذ أن وعيت على هذه الدنيا؟ فلماذا يكبر رأس بعضهم و"يُعنترون" على الآخرين وهم يجهلون الإجابة عن سؤال واحد من مئات الأسئلة الوجودية التي تُحاصرنا؟ لماذا يُصرّون على التهكّم ممّن يؤمن بعقيدة ما ويعتبرونه أحمق لمجرّد أن صدّق "أسطورة" الأديان، في الوقت الذي لم يُثبتوا هم بطلانها؟

عندما قرّرت أن أختلف عن أصدقائي ومجتمعي وبيئتي، كان العالم حينها يشهد حملة عنيفة ضدّ هذا النوع من الإختلاف. وكانت فرنسا وقتها- وغيرها من الدول الأوروبية- تمنع الطالبات المحجبات من دخول مدارسها وجامعاتها.

مشهد نزع الحجاب عن رؤوس الفتيات المسلمات- بذريعة احترام علمانية البلد- ولّد فيّ شعوراً بضرورة الدفاع عن هؤلاء الفتيات انطلاقاً من ضرورة التقيّد بالقانون الذي ينصّ على ضرورة احترام حريّة المُعتقد والملبس.

صدمتي كانت كبيرة لأنني أحسست للحظة أنني أنا هو الآخر. أصبحتُ بالحجاب الذي أضعه على رأسي، أنا الآخر في بلدٍ أمشي في شوارعه وكأنني واحدة من أبنائه. بلد أعشق تاريخه وثقافته وحضارته ولغته.

لم أشعر يوماً أنني غريبة في مدينة باريس التي قصدتها أكثر من ستّ مرّات في حياتي. الروايات الفرنسية التي قرأتها جعلتني أعرف كثيراً من أحيائها وساحاتها، كواحدة من أهلها.

فلماذا يرونني هم كذلك؟ ما كان هدفهم من وراء حملتهم تلك؟ هل هو دفاع عن حقوق المرأة أم أنّه تعدٍّ على حريتها؟ ما هو ردّ فعلهم لو وقفت أمامهم إحدى الفتيات اللواتي تعرّضت لهذا النوع من الإهانة وقالت إنها لم تضع الحجاب لسبب ديني، وإنما لغاية في نفسها، كأن تُجرّب شعور المرأة المحجبة لأنها تكتب رواية بطلتها فتاة محجبة؟ أو لأنها صلعاء بسبب علاجات كيمائية تتعرّض لها نتيجة إصابتها بالسرطان؟ هل ستكون تخطّت بذلك علمانية البلد الموجودة فيه؟ لا أدري لماذا أوجع رأسي بكلّ هذه الأفكار الآن، في الوقت الذي لم أستطع أن أجيب فيه عن سؤال من المفترض أنّ جوابه بديهي: "لماذا وضعت أنا الحجاب على رأسي؟"

ما حصل اليوم معي يزيد من حضور هذا السؤال في رأسي. فأنا مضطربة، ولم يسبق أن وصلت بي الأمور إلى هذا الحدّ. كأنما أقول ما أقوله حتى أُقنع نفسي بشيء لم يعد يقنعني على الإطلاق.

شعور غريب أكاد أعجز عن وصفه. فمن الصعب جداً أن أصف المزاج الذي يُسيطر عليّ، وسط كلّ هذه الإحساسات المتداخلة. أحسّ بشيء من الفوضى الخاوية داخلي... ربما هو شعور من استيقظ لتوّه من حلمٍ كان فيه خارج الحياة. حلم رأى فيه نفسه تهوي من أحد الأبراج، فظلّ يشهق بالرغم من أنه لم يُبارح سريره.

* * *

عقلي لم يعد يتسّع لكلّ هذه الأفكار والتساؤلات التي تسقط على دماغي دفعة واحدة. أتذكّرها الآن وهي واقفة تتلألأ كجوهرة ثمينة تحت خيوط الشمس. صورتها لصقت في ذهني كشيء لزج يلصق فينا، فخلّفت لديّ شعورا دبقاً، ثقيلاً، مزعجاً. شعور مريب يُضايقني كلّما تذكرت أنني

استصغرت نفسي أمام امرأة ليست أكثر من ماضٍ في حياة من أحبّ.

وربما ما يُثير أعصابي أكثر أنني لم أضع اللوم في ما أصابني اليوم في المقهى عليها أو عليه، وإنما عليّ أنا. وضعت اللوم على ذاك الحجاب الذي يستر أنوثتي، والذي لولاه لما كانت لتصل بي الأمور إلى هذا الحدّ.

أنا لم أقسُ يوماً على نفسي كما قسوت عليها اليوم. فما دمت مرتاحة مع نفسي وفخورة بموهبتي وسعيدة مع الرجل الذي أحبّ، لماذا أسمح لامرأة أن تسحقني بهذه السهولة؟! لا أعرف كيف أعطيت لامرأة تُشبه "دمية اللذّة" فرصة أن تتغلّب عليّ، وأن تجعلني لُعبة بين يديها؟ أنا لا أفهم حقاً كيف لصنم جمال أن يخنق روح صانعه!

أسمع أصواتاً كثيرة تتصاعد من داخلي. أصوات ثخينة، وأخرى خفيفة. صرخات وهمسات. عراك بين الأنثى التي استيقظت فجأة بعد سبات طويل، والفنانة التي تخشى أن يُحكم عليها بالنوم المؤبّد. أحسّ أنني على حافة الإنفجار. "الحياة أقلّ من امرأة"، فلماذا كُتب عليّ أن أعيشها بامرأتين؟

أنا أحسد الناس جميعاً لكونهم ليسوا أنا. أستعير هذه العبارة التي كتبها الشاعر البرتغالي فرناندو بيسوا في "كتاب اللاطمأنينة"، وأنا مُدركة تماماً أنّ الأنثى التي كبتّها لن تنام مجدداً قبل أن تنتقم لنفسها. هي الآن مجروحة ولن ترضى أن تمرّ هذه الحادثة ببساطة. ستنتقم... ستنتقم منها، من غرورها، ومن تعاليها عليها.

أنا- وهي تتضمّن نحن- أرغب في أن أرمّم ذاتي التي تخلخلت، وأن أستعيد كياني الذي تدمّر. ماذا أفعل؟ أريد أن أستردّ لنفسي كرامتها ولجسدي اعتباره؟

رغبة في الإنتقام تعتريني... الإنتقام من كلّ الأشياء التي جرحتني. من تلك المرأة، من أنوثتها، من عودتها، من تجاهلها لي، ومن نظراته إليها... أريد أن أنتقم لنفسي من نفسي أيضاً، من احتقاري ذاتي. ولكن كيف...؟ فأنا لم أعهد الإنتقام، إلاّ فنّاً.

وهي المرّة الأولى التي لا أشعر فيها برغبة في الرسم على رغم أنني متضايقة. ففي كلّ مرّة أكون فيها مُنفعلة أتوجّه في شكل أوتوماتيكي نحو محترفي الصغير حيث اعتدتُ أن أعبّر عن غضبي وحزني وفرحي وسخطي... فأرسم وأرسم وأرسم حتى انقطاع حيلتي.

لكنّني اليوم، وعلى خلاف الأيّام كلّها، لا رغبة لديّ في الرسم. الضيق الذي يعتريني ضلّ طريقه، وبدلاً من أن يسوقني نحو باب المرسم، أدخلني غرفتي علّني أرتاح فيها من الغمّ الذي يطبق على صدري.

لا أعرف كيف أتخلّص من ذاك الضرّ الذي مسّني لأهون الأسباب. بماذا أُداوي الجرح الذي يحفر في داخلي؟

في هذه الغرفة لا ألوان ولا معاجين ولا أقلام رصاص... فكيف عساني أُنقذ نفسي من هذا الضياع الذي أعيشه؟

أفكّر... نظراتي تسبح في فضاء الغرفة. عيناي تستقرّان فجأة على الخزانة. نعم! هي الخزانة. داخلها فقط يُمكن أن أُجد ما أرمّم به أفكاري المحطمة.

أنتفض من مكاني، أتوجّه نحوها بعينين واسعتين يملأهما الأمل بالعثور على ما يساعدني على محو صورتها التي تُلاحقني كظلّي... صورة شبيهة إيفا ماندیز التي لا أحبّها، ليس غيرة منها لكونها المرأة الأجمل بنظره، وإنما لخلوّ جمالها من ملامح الأنوثة الشفيفة. فالمرأة المثيرة ليست هي من تُغريني. ولا يُمكن أن يُغريني جمال لا يفتح شهيتي على الرسم.

وجه المرأة الذي لا يفضح حسنه من أوّل مرّة هو أكثر ما يجذبني. الوجه الذي يتحدّى ريشتي يجعلني أقف أمامه عاجزة عن نقل غموضه ومعانيه بالماء والزيت والباستيل هو هدفي.

شكل العينين ولونهما لا يعنياني، بل نظرتهما. وحجم الشفتين لا يهمني، بل ابتسامتهما. قامة المرأة وتفاصيل الجسد ليست معياري، بل تناسقه. أنا أعشق الجمال الذي لا أكتشف مكمنه، وإنما أظلّ أبحث عن سرّه في كلّ مرّة أراه أمامي.

* * *

أقف أمام خزانتي حائرة، لا أعرف من أين أبدأ... منذ سنوات لم أتسمّر أمام الخزانة بهذا الشكل. أسلوب حياتي سرقني من هذا الركن الذي لم يعد يعني لي الكثير، ما عدا درفتيْ الحقائب والأحذية التي لا أقتني إلاّ الثمين منها والجميل...

أفتح خزانتي وأحدّق في محتواها. هنا ملابس طويلة بأكمام. وفي الدرفة الأخرى أيضاً... لا، لا أريدها!

قمصان وفساتين بألوان حيادية تلتهم الخزانة. بنّي، رمادي، أسود، أبيض، بيج... لا. ولا هذه أيضاً!

أُنقل نظراتي من فستان إلى آخر. أزيح الثياب بيديّ، الواحد تلو الآخر، وكأنني أكنسّها...

لا... لا! هذه الملابس ما عدت أريدها. ما عادت تنفعني. الوقت الآن ليس وقتها. لا شيء منها يُرضيني... هي أعجز من أن تُساعدني في الانتقام منها.

أجلب الكرسي الصغير وأفتح الطبقة العليا من الخزانة. نظراتي تروح وتجيء كعيني مُفتّش في غرفة مشبوهة... تروح وتجيء عشرات المرّات في

الثانية. لا بدّ من أن أجد شيئاً يُعيد إليّ أنوثتي التي تلاشت أمام تلك المرأة القاتلة. قطعة واحدة تستوقفني فجأة، مع أنّها لا يبين منها سوى طرفها. هي تختبئ بين مجموعة من الملابس المتكّدسة بعضها فوق بعض... لكنّني أُميّزها.

أتنفّس الصعداء وأمدّ يديّ كي أتناولها، آملةً بأن أستعيد ثقتي بجسدي بعد موقف صعب اختبرته في المقهى... تلك اللحظة التي اكتشفت فيها أنني عالمة بأجساد الناس أكثر من جسدي نفسه.

في اختبار رسم الجسد الأنثوي، في السنة الجامعية الأخيرة، وجدتني للمرة الأولى في حياتي أمام عري كامل. وكنت أنا نفسي نسيت شكل جسدي الذي لا أُنتبه إلى وجوده إلاّ صدفةً.

مشهد العري في الواقع يختلف تماماً عمّا نراه في اللوحات. المشهد كان مُرعباً. فأنا لم أستطع أن أمنع يديّ من الارتعاش وقلبي من الخفقان أمام ذاك الجسد الغريب، جسد العارضة.

مزيج من الخوف والخجل والدهشة سيطر عليّ.

لم أكن أعرف قبل تلك التجربة أنّ الجسد هو نفسه مُعجزة. مُعجزة في الدقة والكمال. كنت مفتونة بجرأة الجسد وصاحبته، وبهذا العري أيضاً. وكنت واثقة من قدرتي على أن أضيف إليه الكثير من روحي حتى يتحوّل ذاك الجسد من حالته الفيزيقية إلى حالة ميتافيزيقية... أي من كونه جسماً صامتاً إلى تجربته كشعاع للفكر.

كان عليّ أولاً أن أختار وضعية الجسد في عُريه، ومن ثمّ أفكّر في التقنية والألوان والتفاصيل الأخرى. كنت متيقنة من أنّ الجميع ينتظر لوحتي أنا بالذات. وكانت نظراتهم إليّ، في كلّ مرّة نتحدث فيها عن هذا الإمتحان، تشي لي بفضولهم لاكتشاف حقيقة نظرتي إلى جسد المرأة، أنا التي تُخفي حقيقة جسدها عن عيون الناس.

لم أكن أريد أن أبدو صادمة، كأنْ أختار وضعية امرأة ممدّدة أكشف فيها تفاصيل جسدها، أو امرأة في وضعية تلمّس جسدها مثلاً. بل كنت أبحث عن فكرة أصوّر من خلالها الجسد العاري، ومن خلاله الحالة النفسية الداخلية لصاحبته.

طلبت من العارضة أن تجلس على الأرض وأن تطوي جسدها بطريقة تتداخل فيها أطرافها حتى تتشابك اليدان فوق القدمين، فيغدو جسدها أشبه بكرة جاهزة لأن تُركل. تعمّدت وضعية "المرأة المنحنية" حتى أتجاوز مسألة العري بكلّ ما يُمثلّه للناس من محرّمات ومحظورات، كاشفة من خلاله عن الوحدة الداخلية التي تعيشها هذه المرأة المتجمّعة على ذاتها كما الدائرة.

سألت العارضة أن تُغلق عينيها وأن تُسدل شعرها من الناحية الأخرى. ظهرها كان مقوّساً ووجهها غارقاً بين فخذيها المطويتين. رجلاها اتخذتا شكل هرم، فلا يبين من وجهها إلاّ جانب واحد، بينما يذوب النصف الآخر في ظلّ النصف الأول. أمّا فمها فغارق في بياض كتفها المرفوعة قليلا إلى أعلى. هكذا بقيت ملامح وجهها مُبهمة لمن يُشاهدها. وهذا ما كنت أتقصّده. فالتحدّي كان بالنسبة إليّ هو القدرة على التعبير عن حالة نفسية عميقة من خلال الجسد، لا الوجه.

الجسد نفسه لم يتجلّ منه أكثر من إنحناءة الظهر الأملس، وتكوير الثدي الأبيض والطرف الأيمن من الفخذ والساق.

هذه الوضعية كانت تحديا لنفسي قبل أن أتحدّى فيها الآخرين. تعمّدتها لأنّها قادرة على إظهار الإحساس الباطني للمرأة. ولأنني أردت أن أُفرغ العري من معانيه الحسية الغريزية، وأمنحه قيمة أعمق من تلك المحفورة في أذهان الناس. ولهذه الوضعية اخترت الرسم بتقنية الباستيل التي تكرّس أنوثة المرأة وتمنح جسدها الكثير من الرقّة والغموض.

اخترت ورقة سميكة، قاتمة اللون، حتى أتمكّن من إبراز الإضاءة على ظهر العارضة، بواسطة التناقض بين لون ظهرها الفاتح ولون الخلفية الغامقة. ومن ثمّ استخدمت الباستيل باللون البني الداكن لرسم الظلال، وبمزيج من البني والبنفسجي ركزت على ظلال ثنية الساق. وبهذا اللون أيضاً لوّنت هيكل الذراع واليد. وبالأصفر الداكن حدّدت طرف الظهر المنحني والثدي المُهدل على الفخذ. وبالقليل من الزهري لوّنت الأذن والجزء الظاهر من الرقبة. وما تبقّى من الجسد لوّنته بالبيج اللحمي.

أمّا الأبيض فاخترته لوناً للمساحة التي تجلس عليها العارضة، فبدا وكأنّه انعكاس نور خارجي وصل إلى المكان المُغلق عبر نافذة نسيتها المرأة الوحيدة مفتوحة. ضوء يلتمع فيه بياض جسدها الملتصق بنفسه كدائرة. وجاءت مرحلة التظليل الأخيرة لتُضفي على اللوحة جوّاً ضبابياً يترجم اللحظة التي تعيشها المرأة. وساهمت فكرة التظليل والإضاءة في خلق مناخ من الهدوء والصمت والإحساس داخل اللوحة نفسها.

غريبة أنا! أإذا لم يكن لي مزاج للرسم، أتذكّر نفسي وأنا أرسم؟ ألهذا الحدّ تسكنني هذه اللوثة؟

* * *

واقفة أمام الخزانة، أنظر إلى يديّ. لا أحمل فيهما ورقة أو ريشة أو قلماً، بل فستاناً صغيراً بلون الرغبة والحبّ. هو فستان قصير، مكشوف عن الصدر، لونه أحمر باهر. أرفعه أمام عينيّ، أقبّله ومن ثمّ أرميه على السرير.

أقبض راحة يدي، وأعيد ساعدي إلى الوراء ومن ثمّ أُفرد يدي إلى الأمام، وبصوت مبحوح تنزلق الكلمة ذاتها من بين شفتي:

YYYYes!...

يُجمع علماء النفس، واللسانيات أيضاً، على أنّ الإنسان، في لحظات الإنفعال الشديد، يعود إلى طبيعته الأولى، سواء كان الإنفعال هذا فرحاً أم حزناً. ومن دون أن يتحكّم بلسانه، نراه ينطق بلغته الأصلية. وأحياناً بلهجته التي سمعها أوّل مرّة في بيئته الأولى... لكنني لا أعرف كيف تسبقني كلمة yes في لحظات الانفعال الإيجابي...

هذه الكلمة تعني بالنسبة إليّ ما تعنيه كلمة "أوريكا" بالنسبة إلى أرخميدس... هي تعني فعلاً أنني "وجدتها" وإيجاد الفستان الأحمر المثير ضمن "أطنانٍ" من الملابس الطويلة والمحتشمة في خزانتي أمرٌ فاجأني تماماً كما فاجأت التفاحة الحمراء أبانا آدم...

ملابسي كلّها "مُقفلة" فأنا "مُحجبة" مُحتشمة... قد تبدو هذه العبارة غريبة، إذ لا يُعقل أن تكون المحجّبة غير محتشمة... ولكن ما يحصل الآن أنّ الحجاب بات موضة في عالمنا العربي والابتكارات فيه كثيرة. وثمّة جيل يضع الحجاب ليس فقط كرمز ديني، وإنما كرمز سياسي وإيديولوجي، ولكلّ واحدة من هؤلاء الفتيات، ذوقها ونزعتها وطريقتها في وضع الحجاب. فمنهنّ من هي open، ومنهنّ من هي close.

الفئة الأولى تُجاري الموضة بكلّ ما فيها من موديلات جريئة وألوان فاقعة ولافتة للنظر كأي فتاة "سافرة"، فترتدي الواحدة منهنّ فستاناً عاري الظهر أو قميصاً مكشوفاً وتكتفي بوضع كنزة لاصقة تُغطّي اللحم تحته. هؤلاء يعتبرن أنفسهن "مبتكرات" لأنهن استطعن مجاراة آخر صيحات الموضة وبتن يعشن أنوثتهن من غير التنازل عن واجبهن الديني- السياسي- الاجتماعي. والفئة الثانية تُفضّل الملابس الفضفاضة ذات الألوان الداكنة و"الإيشاربات" الطويلة، وهو ما يُطلق عليه اللباس الشرعي... أمّا أنا فلا أنتمي إلى هذه الفئة ولا إلى تلك... لا أنتمي إلى

أي فئة أخرى أصلاً. فالفنان، يبقى دوماً الكائن اللامنتمي، شكلاً وفكراً...

ومع أنّ مظهري يكشف تلقائياً هوية المُعتقد الذي أنتمي إليه، إلاّ أنني لم أختره يوماً كدليل لأيّ انتماء.

أنا لا أجاري محجبات معظم بنات في موضتهنّ، لأنّني مثلما أرفض أن يتدخّل أحد باللوحة التي أرسمها، أرفض أيضاً أن أتدخل في ثوب قضت مصممته ساعات في تخيّله وتنفيذه... أنا واثقة من أنّ الثوب الذي صُمّم مفتوحاً عن الظهر ومكشوفا عن الصدر يفقد كلّ أناقته، حالما أرقعه بقطع من القماش. لهذا أختار الثياب التي ارتأى مُصممها أن تكون مُقفلة ومحتشمة، حتى لا أُفقدها شيئاً من جماليتها. أعرف بعض الفتيات المحجبات بأسلوب ال Funcky، وأدرك تماماً رأيهنّ فيّ. هنّ يرينني كلاسيكية، ولا أدري لماذا يستخدمن هذه الكلمة على أنّها إهانة!...

وكما أنّ بعض النساء غير المحجبات يرينني "متخلفة" أو demodee، ثمة محجبات يرينني خارج الموضة لأنني لا أزيّن المنديل بالدبابيس المضيئة كحبات كريستال، ولا أجاري موضتهن في ترقيع الملابس المفتوحة، ولا أحشو رأسي بتلك القطعة الإسفنجية التي تزيد حجم رأسي أضعافاً وتمسخني إلى واحدة من شخوص أفاتار.

على أيّة حال، ليس هذا ما يهمني الآن. الفستان القصير الذي تجلّى أمامي كهدية جميلة بين الملابس الطويلة هو ما يشغل بالي حالياً. اشتريت هذا الفستان الأحمر الجميل قبل أشهر لا لسبب سوى أنّه أعجبني. كنت أعرف أنني لن ألبسه أمام أحد ولكنّني أحببته. تخيّلت نفسي به، فاشتريته على الفور. وأنا عادة لا أقوم بأيّ عمل قبل أن يمرّ في

مختبر المخيّلة. إنني أصدّق الأشياء بخيالي، ومن غير أن أخضعها لحسابات العقل والمنطق.

أنا امرأة تحيا بالخيال. ولم يحدث أبداً أن ندمت على عمل دفعني خيالي نحوه. لكنّه حصل مرّات كثيرة عندما سلّمت زمام الأمور لعقلي. ولا أعرف حقيقةً إن كانت هذه هي القاعدة أم أنني أنا الإستثناء؟

اشتريت الفستان وخبّأته في الخزانة قبل أن أرى نفسي به، لأنني ما كنت أرغب في أن يراني فيه أحد قبله، وإن كنت أنا. صمّمت على أن تكون عيناه أوّل من ينظر إليّ في هذا الفستان الجميل، بعد أن أُصبح "حلاله" ثلاثة أعوام هي عمر علاقتنا، وحتى الآن لم يحصل بيننا أيّة علاقة حسيّة. أنا من أراد ذلك، وهو لم يتأفّف.

ببساطة، لم أتخيّل نفسي يوماً مع رجل لا تربطني فيه سوى علاقة حبّ، تماماً مثلما لم أتخيّل نفسي مع رجل لا يربطني فيه سوى عقد زواج. لا أستطيع أن أتخيّل نفسي المرأة العابرة في حياة أحدهم، وإن كان هذا الأحد هو حبيبي. الحبّ وحده لا يكفيني، ولا الرغبة أيضاً. أحبّ أن أمارس الحبّ بقلبي وجسدي وعقلي... أو ربما ببالٍ مرتاح.

شخصيتي المُغامرة لم تصل بي إلى حدّ اكتشاف ذاتي مع رجل من غير وجود صفة تُعلّف علاقتنا. لا أدري، هل هذه عقدةٌ فيّ أم التزام؟ كان يُمكن أن أجد حلولاً شرعية لأنّ الزيجات السريّة والمحللة كثيرة، لكنّ ما هذا الذي أريده. لن أكون مع رجل لم يناضل من أجل أن يتزوجني. الجسد متعتي أمّا الجنس فليس هوسي. أنانيتي في حبّ جسدي فاقت حبّي لجسده. أبيت أن أبوح بسرّ جسدي لأحد، إلاّ لمن أحبّه وأتزوجه. مع أنني تمنيت في لحظات كثيرة لو أنني أكشف نفسي أمامه وأهبه جسدي الذي يتعطّش إلى لمساته وقبلاته.

وفي لحظات معينة كنت أشعر برغبته فيّ، لا سيّما عندما كان يصمت طويلاً ويُراقبني بعينين واسعتين. كان يُدقّق في قليل من شعري يبرز أحياناً من تحت المنديل، ويتفحّص ما قد يظهر من رقبتي حين تهبّ نسمة هواء. كنت أحسّ برغبته الدفينة في اكتشافي. لمعات عينيه كانت تفضحه، يهرب منها بالكلام، فتتبدّى برعشات صوته، قبل أن يدخل كلانا في صمت مُريب. صمت أشدّ تعبيراً من الكلام. للحظات كان العقل يدخل في غيبوبة، ويتلاشى الجسد كغيمة، ولا يبقى منّا سوى رغبة مشتعلة. كنت أتمنى لو أنّه يحضنني وأغرق فيه، لكنه لم يفعل، ولم أعدل عن قراري في عدم جعل جسدي أداة استمتاع لأي رجل، ما لم يكن هو الحبيب والزوج.

جسدي لا يقلّ قيمة عن روحي. كلاهما أنا. ومن دون أحدهما لا أبقى شيئاً. هذا ما أبحث عن تفسيره في لوحاتي. وهذا ما أُنشده في حياتي. جسدي لا يسقط بحمايتي له، وإنما يسمو. ولكنْ لا أحد يفهمني، سواه. وأنا لا أنكر أنّ موقفي هذا كلّفني ثمناً ليس بزهيد. خسرت راحة البال، وأحياناً ثقتي بمن أحبّ. الشكوك به غالباً ما تُحاصرني، ولا أدري إن كان هو بريئاً منها أم لا! فهل يمكن لشاب وسيم مثله أن يبقى "مُترهباً" من أجل امرأة لا تسمح له بالاستمتاع بجسدها؟ هل صحيح أنّه افتقد عادة الجنس منذ أن اعتنق عادة الحبّ، كما قال لي مرّة، أم أنه مجرد كلام مُخدّر للشك الذي يشتعل سريعاً في قلب أيّ امرأة؟ إنه محامٍ والقدرة على الإقناع لعبته. فماذا لو كان يخرج مع سواي؟

لا أتحمّل فكرة أن أتخيّله مع امرأة أخرى. يداعب شعرها ويُقبّل فمها ويتلمّس مكامن أنوثتها، بيديه، بأصابعه التي أحبّها. لا أدري إن كنت أظلمه. أحرمه جسدي وأحرّم عليه أجساد الأخريات. لكنّه سبق أن فهم مخاوفي فتطرّق إلى هذا الموضوع بأسلوبه الذكي قائلا: "الحاجات

الجسدية تتخذ شكلاً حيوانياً غريزياً. والذي يعيش حباً حقيقياً يغدو ممتلئاً بمشاعره إلى حدّ أنّ لمسة واحدة يد من حبيبته يُمكن أن تُشبعه أكثر من علاقة كاملة مع امرأة أخرى لا تعنيه" هل أصدقه فعلاً أم أنني أُحاول أن أقنع نفسي وأقنع نفسي بكلامه هذا، لعلّني أخفف عنها قلقها وشجونها!؟... لا أعرف.

أنظر في اللاشيء، ثم ألمح الفستان، فيطمئن قلبي. الشكّ لم يساورني لحظة في أنني سأكون جميلة بهذا الفستان الأحمر المكشوف. كنت واثقة من أنّه يُناسبني ويليق بي. أحببت أن تكون طلّتي بهذا الفستان الجميل مفاجأة لكلينا، أنا وهو معاً...

أقترب من السرير. أحمل الفستان القصير بيديّ. أتأملّه بفرح يغمر وجهي، وأصرخ: "هذا هو... بهذا سوف أنتقم لنفسي من تلك الغريمة الوقحة"

آخر ما كنت أتوقعه أن أرتدي هذا الفستان المثير من أجل امرأة. ولكن هذا ما حصل. الجمر الذي أوقدته تلك الغريمة اللئيمة في صدري لم ينطفئ، بل ظلّت ناره تُفرقع في داخلي كما تُفرقع النار داخل الموقدة.

أمامها فقط أحسست أنّ شعور المرأة بأنوثتها قد يكون أعظم أحياناً من شعورها بإنسانيتها.

أن أحجب جسدي وأخرج بين الناس يعني أنني أعيش خارج أنوثتي. لا نظرات ذكورية تُحاصرني ولا كلمات غزل تُربكني. لكنّ الأنوثة بالنسبة إلى المرأة هي متعة، بل نعمة حقيقية لم أعرف قيمتها قبل اليوم. فلا شيء يمنح المرأة ثقتها بنفسها كما يفعل جسدها عندما يكون جميلاً.

الروح نفسها غالباً ما تكون عاجزة عن منح المرأة الثقة التي يمنحها إيّاها جسدها.

* * *

أضع الفستان على السرير، أخلع ملابسي، أفكّ عقدة شعري الذي غالباً ما أُبقيه مربوطاً تحت غطاء الرأس حتى لا ينسدل من تحته، فتتراخى الخصلات الناعمة، ومعها أعصاب وجهي وعضلات يديّ وقدميّ ومفاصلي...

أحسّ الآن بالدم يجرى في عروقي براحة شديدة... أُقف قُبالة المرآة الكبيرة التي تتوسّط غرفتي، من دون أن أنظر إليها. أعطيها ظهري حتى لا أكشف نفسي مرّة واحدة. أتخيلها تُراقبني داخل المرآة. غريمتي تختبئ داخلها والقلق يسكنها. "هذه النكرة التي تجاهلتها ليست فقط فنانة مُبدعة، وإنما أمرأة أيضاً... امرأة تُضاهيني جمالاً وأنوثة!" أخالها تقول ذلك بينها وبين نفسها.

أريد أن "أُحرقصها"، وأن أزيد من غيظها... أتمنى لو أنّها تُصاب بالنوبة التي أصابتني لحظة وقوفها في المقهى، ظهيرة اليوم...

شعري الخرنوبي يتهدّل فوق كتفيّ، ولون الفستان الأحمر ينعكس على لونه، فيبدو أكثر احمرارا.

لم أنظر بعد في المرآة وإنما أنا متيقنة من ذلك... ماذا أفعل الآن؟ هل أدير ظهري؟... لا ليس بعد.

أدخل حمّام الغرفة. أنظر في المرآة الدائرية كي لا أرى إلاّ وجهي. أغمض عينيّ وأرسم بالكحل الأسود خطاً يمتدّ خارج الجفن، ومن ثمّ أكرّر ما فعلته فوق العين الثانية. أضع أحمر الشفاه الداكن من "شانيل"، فيُظهر شفتيّ المكتنزتين بطريقة مثيرة. هكذا أحبّ نفسي. وجهي بالماكياج يتجلّى. وله الحقّ بودلير في أن يتغنّى بمساحيق التجميل التي تصنع جمال المرأة. لم أكن أتصوّر أنّ شاعراً كبيراً مثل بودلير يُمكن أن يكتب نصوصاً عن جماليات الماكياج الذي يُحوّل وجه المرأة من شيء

جامد وعادي وأحياناً كئيب، إلى لوحة فرِحة تمتزج فيها الحياة والسحر والجمال!

أنتعل حذاء أسود بكعب عال وأتجه صوب المرآة الكبيرة وفي قلبي رعشة لا أدري سببها. ربما هي رهبة اللقاء بنفسي بعد طول غياب، أو أنّه رُهاب المنافسة مع غريم قوي يتربّص بي خلف المرآة... وربما السببان معاً!

إنها المرّة الأولى التي أعود فيها إلى المنزل بعد لقائي به من غير أن أمارس طقوس ما بعد اللقاء، كأن أُلقي بنفسي في السرير، وأتأمّل الفراغ وأبتسم ابتسامات ساذجة، حاملةً الهاتف بين يديّ لعلّ رسالة سريعة تصلني منه يُخبرني فيها عن شوقه إليّ وفرحه بالوقت الجميل الذي قضيناه معاً متنقلين كمراهقين من مطعم إلى حديقة فمقهى فكورنيش.

اليوم اختلفت الأشياء كلّها. لم أدخل المرسم ولم أنتظر رسالته ولم أبعث إليه بواحدة. لا أشعر أصلاً بأنني ممتلئة به. بل عدت إلى المنزل وكأنني امرأة أخرى. لا أحد يشغل بالي غير تلك المرأة، وذاك الإضطراب الذي اعتراني... نسيته ونسيت نفسي وقيمتي وفني. الاحساس بفقدان أنوثتي أمام امرأة أخرى كان أسوأ ما حصل لي في الآونة الأخيرة.

لا لن أعود إلى تلك الأفكار السامّة. هذا ليس وقت استسلام. عليّ أن أنظر إلى المرآة. أتوجه إلى المرآة الكبيرة مغمضة العينين. ثوانٍ ثمّ أفتحهما... يا إلهي! هي امرأة غيري تتوسط المرآة. امرأة مضيئة بفستانها الأحمر الجميل، وشعرها الخرّوبي الطويل. أركّز نظري في المرآة وأتأمّل نفسي وأنا أمرّر أصابعي بين خصلات شعري، أتلمّس بيديّ ما ينكشف من جسدي. أستدير قليلاً حتى أدقّق في الأماكن المكتنزة من جسدي. كم هو رائع هذا الجسد بثنياته ونعومته وألوانه. أتأمّل ساقيّ اللتين كدت

أنسى شكلهما. أيُعقل أن تنسى امرأة مثلي جسدها وأنوثتها وهي في ربيع عمرها؟

أقترب من وجهي أكثر فأكثر. شريان متفرقع وسط جبيني أراه لأوّل مرّة. لا أدري إن كان انبثق من رأسي خجلاً أم حماسة أم أنّه موجود أصلاً من غير أن أنتبه إليه.

ثوان قليلة أمام المرآة أعيد فيها اعتباري إلى نفسي. أين هي تلك المغرورة؟ اختفت. ذابت. تلاشت في الهواء. محوت صورتها من مخيلتي، وطردتها من ذهني كما أطرد ذبابة تحوّم حول وجهي... صورتي التي تجلّت أمامي في المرآة كانت كفيلة بأن تسحقها. لا يُمكن أحداً أن يُصدّق ما حصل معي. خلال دقائق معدودة اختفت امرأة وظهرت أخرى. أنا نفسي كدت لا أتعرّف إليّ. أو بالأحرى إلى الأخرى التي هي أنا أيضاً... امرأتان مختلفتان، متباعدتان بُعد الأرض عن السماء، تجتمعان فيّ أنا. ولكن أيّهما هي أنا؟ أيّ واحدة منهما هي الحقيقية؟ أيّهما أنا أكثر...؟ المرأة التي كنتها ظهر اليوم في المقهى، أم تلك التي صرتها الآن في غرفتي؟

بقدرة قادر تفجرت فيّ الأنوثة كتفجّر ينبوع في صخرة.

"أنا هي التي أراها الآن..."، صورتي التي أحبّها عادت إليّ.

أدقّق في نفسي، ملامحي، قسماتي، منعطفات جسدي الذي اشتدّ بياضه من طول الخباء... صورة تلمع فجأة في رأسي: "لوليتا"، تلك المراهقة المشاغبة بشعرها القاني وأحمر شفتيها الداكن وفستانها الوردي القصير... تلك الصورة على غلاف رواية فلاديمير نابوكوف الشهيرة تُعميني. أخالني هي... الصورة التي يرسمها نابوكوف لبطلته الصغيرة بدقّة فنان تشكيلي هي لي. أشبهها إلى حدّ أنني لا أعرف إن كان يصفني أنا أم هي. خصلات شعرها التي تتدلّى بلامبالاة على وجهها الصغير،

النمش الذي يُزيّن صدرها وكتفيها. الوجه الطفولي هو أيضاً نفسه. هذا الوجه الذي يجعلني وأنا في الخامسة والعشرين من عمري أبدو كأنني لم أتخطّ الخامسة عشرة.

هكذا هي لوليتا، تبقى مراهقة والنساء جميعهن يكبرن.

فستاني الأحمر مكشوف عن الصدر والكتفين. أمرّر يديّ على جسدي، أتحسّس نداوته. أتلمّس نعومته. لا لم يترهّل في عتمته. بل اشتدّ بياضاً، وجمالاً

أنظر أمامي، فأراني أتوسط المرآة. وحدي أنا بطلة المكان. لا أحد معي.

أتذكرها، أبحث عن غريمتي فلا أراها... أشمت بها.

أين هي تلك الصحراء المثيرة؟ ماذا حلّ بالغجرية ذات الشعر الأسود الطويل؟ القطعة الذهبية خَفَتَ وهجها أمام بريق الماسة التي أخرجتها لتوّها من علبتها المقفلة!

صورتي تجذبني. أتأمّل صورتي عبر المرآة. أحدّق فيها. المرآة تمنح الصورة شيئاً من الخيال، فتغدو أكثر إشراقاً وجمالاً أتأمل صورتي، ولا أشبع منها. أحاول أن أحضنها مُشتاقة مثلما حاول نرسيس أن يحضن صورته في الماء حتى قضى غرقاً.

موت نرسيس، البطل الإغريقي، فكرةٌ أيقظني من إغماءتي. تُرى لماذا أنا مدهوشة بنفسي إلى هذا الحدّ؟ هل لأنني لم أرني منذ مدّة طويلة؟ أم أنني فعلاً أمسيت امرأة أخرى أشدّ سحراً وجمالاً؟

لا، لا... عيناي لا تخونانني. أفكّر في احتمال أن أخرج إلى الناس على هذه الحالة. هم كيف سينظرون إليّ؟ ما الذي سيتغيّر في حياتي؟ هل ستتبدّل علاقتهم بي أم أنّهم سيبقون كما عهدتهم؟ الجسد قد يصنع قدر الإنسان. ولا شكّ في أنّ هذا الجسد بالذات قادر على أن يصنع لي قدراً

أفضل. لا، ليس بالضرورة أفضل... بماذا أفاد الجمال "مالينا" بطلة الفيلم الذي شاهدته مراراً حتى اقتنعت في نهاية المطاف أنّ الجمال نقمة المرأة، وأنّ الشياطين لا تسكن جسدها هي، بل عيون النساء والرجال الذين يتلصّصون عليها...

لا أحد يعرفني بالصورة التي أنا عليها الآن.عندما غطّيت جسدي كنت مازلت مراهقة. أمّا الآن، فأنا امرأة ناضجة. لقد بلغتُ سنّ الرشد تحت طبقات الملابس الكثيرة. أصبحت امرأة وأنا أختبئ داخل "ملفوفتي جسدي بمقدماته ومؤخراته لم يكتمل إلاّ تحت أكوام القماش التي تلفني.

أتأمل نفسي وأستعيد صوت أستاذ اللغة العربية الذي علّق على فوزي بلقب أجمل فتاة في المدرسة، خلال المرحلة الثانوية، واصفاً إيّاي أمام تلامذة الصف: "جمالها يحمل هوية غربية، وعلى الأرجح هو جمال بيزنطي. وبما أنّ أبويها عربيان وليس في جيناتها أي مزيج، فإنّني أرجّح احتمال أن يكون قد حصل تزاوج مختلط في زمن بعيد، أثمر هذه الملامح الأوروبية الواضحة في بياض البشرة الناصع وحُمرة الشعر الطبيعية واستقامة الأنف وارتفاعه"

لماذا أتذكر هذه التفاصيل الآن؟ هل لأنني نسيت خلال السنوات الأخيرة أنني جميلة؟ أم أنني نسيت أن أنظر أصلاً إلى المرآة لانشغالي بتفاصيل العالم الذي يُحيط بي؟

عيناي اللتان رأيتُ بهما كلّ شيء، عجزتا عن النظر إلى أقرب شيء إليهما. إليّ أنا. نظرت بهما إلى العالم كلّه، ونسيت أن أنظر بهما إلى جسدي.

يعتريني الآن شعور بضرورة التعويض عن آثام الماضي كلّه. آثام تجاهلي لنفسي، وجسدي.

نعومة بشرتي البيضاء ولون شعري المائل إلى الحُمرة يُحيلانني بطلة من بطلات تولوز لوتريك، رسّام مونمارتر الأشهر. فهو كان يُفضّل هذا الجمال عن غيره ويُثني على تناغم هذين اللونين "الأحمر والأبيض"، وكان يرسم جميع نساء لوحاته ببشرة بيضاء ناعمة وشعر أحمر.

أُعاود النظر إلى المرآة. أتأمل صورتي فيها حتى أكاد أخرق زجاجها بنظراتي. أنا لا أشبع مني. مشتاقة إليّ. أحسّ أنّني عثرت على صورتي الحقيقية، بعدما أضحت صورتي المزيفة هي الحقيقية.

كأنني عشتُ "انمساخاً" ما... قامتي بدت ممشوقة. وجهي البيضاوي غدا أوسع. وعيناي صارتا أكبر حجماً، وأكثر فرحاً... كلّ ما فيّ غدا أجمل.

الملابس المقفله تُعطي الجسد مقاييس غير حقيقية. وها أنا أتأكّد الآن أنّ الحجاب ليس مجرّد غطاء للشعر، وإنما غطاء للأنوثة بكاملها. الآن وجدت الجواب عن السؤال الذي طالما طرحته على نفسي: لماذا الشعر؟ هل الإثارة تكمن في شعر المرأة أم في عينيها وجسدها وقوامها؟

اليوم عرفت أنّ الوشاح الذي يلفّ رأسي لا يُغطي شعري فحسب، وإنما يُغطيني كلّي. يُغيّر قسمات وجهي. يسرق منه توهّجه. ومن عينيّ بريقهما. ويخفي أيضاً انعطافات جسدي الذي يغدو مسطحاً، لا استدارات فيه ولا ثنيات!

الحجاب يطمس هويتي كامرأة... لا، لا يجدر بي أن أبالغ. هو لا يطمس أنوثتي وإنما يُبدّلها، ويخفي أهم ملامحها. يحجب شعري، ومعه أيضاً جزءاً كبيراً من وجهي كذقني وجبيني ورقبتي... وأشياء أخرى كثيرة، ليس آخرها لوني. علماً أنّ لون الإنسان هو جزء من هويته. الشعوب تُقسّم بحسب ألوانها: الأبيض، الأصفر، الأسود. الانتماءات الوطنية والحزبية تُعرف أيضاً بألوانها. أمّا أنا، فألواني مسحوبة منّي مثل نيغاتيف

صورة. وجنتاي الورديتان كما زهرة الدرّاق، تلوحان بألوان المنديل الذي أرتديه: أصفر، أخضر، أزرق، كحلي، رمادي... ولون بشرتي تُغطيه ألوان الأقمشة التي أرتديها. أمّا شعري فأصبح هو المنديل نفسه.

أحسّ الآن أنني عشت حياتي طوال السنوات الخمس كما لو أنني في زيٍّ وظيفي. أرتدي زيّاً مختلفاً عمّن هم حولي. وعنّي أنا أيضاً. أموّه شكلي، وأخرج بين الناس بصورة بديلة، حتى بات من الصعب عليهم أن يتعرّفوا إليّ من دونه. أو الأصحّ أنّه بات صعباً عليّ أن أتعرّف إليّ...

لن يعرفني أحد إن خرجت بهذه الهيئة! وجهي لم يعد يُعرّف عني. ملابسي فقط تدلّ الناس عليّ. بها باتوا قادرين على اكتشاف ديني وهويتي وأفكاري، وأحياناً على تكهن طبقتي الإجتماعية والثقافية، قبل أن أنطق بكلمة واحدة...

وأنا لم أفكر مرّة من قبل، أنّ الاحتشام من شأنه أن يفضحني بدلا من أن يحجبني. فهل كنت أعرّي نفسي كلّما حاولت أن أغطي جسدي؟ لا أعرف... وما الفرق؟ فأنا حينما وضعته كنت أدرك أنّ جسدي وجمالي وأنوثتي ليست هي رغباتي. وما كنت مُرتاحة أصلاً مع نفسي بذاك الشعر الذي أحببته فجأة الآن. في تلك المرحلة كنت تائهة أيضاً وقلقة، كنت أبحث عن توازنٍ ما، عن سلام داخلي اعتقدتُ أنني بالإلتزام سوف أصل إليه.

***

أتأمّل صورتي... أراني أحمل مواصفات العارضة التي أُفضّلها أنا لرسم الجسد الأنثوي في لوحاتي. الوجه الطفولي، القامة المعتدلة، الجسد النحيف، من غير أن يخلو من الانتفاخات التي تجعله أشبه بشكل الساعة الرملية.

لـمَ لا أرسم جسدي وأنا واقفة أتأمّل عريه أمام المرآة؟ لـمَ لا يكون جسدي المُحتجب عن أنظار الناس هو مادّة إحدى لوحاتي؟ لماذا لا أكون أنا الرسّامة وأنا العارضة؟ ماذا يمنع أن أكون أنا "موديل نفسي؟

أنظر إلى جسدي مرّة أخرى بمتعة رسام يدقّق في أجمل لوحاته.

كم يليق بي هذا الفستان! النهدان يظهران من تحت الفستان المكشوف الصدر. بطني يحدّه خصري النحيل. المؤخرة في شكلها الدائري تُبرز كلّ ما فيّ من أنوثة. أحدّق في المرآة، فأراني أنثى جميلة، نضرة، لعوباً بالفطرة...

كم أحب هذه الصورة التي أبدو عليها في المرآة. إنها أنا. من يُصدّق؟ هذه أنا كما خلقني الله. بلون الشعر الذي اختاره لي. خليط الألوان هذا وهبني إيّاه خالقي لكي يصنع منه جمالي الصاخب، فلمَ أزهد فيه؟

عندما حرّرت شعري من سجنه، انتبهت إلى أن بقيّة من تفاصيل وجهي تحررت أيضاً... ملامحي برزت فجأة. تنفّستْ. وروحي أيضاً ارتاحت، واستعادت حيوية نائمة منذ سنوات.

أدقق في المرآة وأتساءل: لـمَ كتبتُ على نفسي أن أعيش في حفلة تنكرية دائمة؟ فإن كان الله وهبني نعمة الجمال، فلمَ أُغطّيه بقطعة قماش خاطتها أيدي العباد؟ لماذا أخفي هدية منحني الله إيّاها لحكمة يعلمها وحده؟ هل محو الذات هو طريق الخلاص؟

أمام زهوي بنفسي تُطالعني أسئلة لم أفكر بها يوماً وإن من باب الصدفة: أهكذا يرضى الله عنّا؟ هل ينبغي على الإنسان أن يهمل جسده لكي يستحق السعادة الأبدية؟ أوَليس في إخفاء الطبيعة التي فطرنا الله عليها تحدّياً لمشيئة الله وصنيعه؟

أنظر إليّ مدهوشة من قوتي على أن أزهد بكلّ هذه الأنوثة التي غالباً ما تستفز ريشتي. ومن ثمّ أتذكّر جرأتي على التفكير بمثل هذه الأسئلة التي قد يعتقدها بعضهم تجديفاً... ماذا يُصيبني؟ وإلى أين أمضي مع كلّ ما أشعره الآن؟... لا أعرف!

* * *

صوت موسيقى شرقية يصدح داخل الغرفة فينتشلني من سَيْل أسئلة لا أجوبة لديَّ عنها... موسيقى جميلة توقظني من أفكاري الغريبة لتُدخلني في عالم آخر. أدير وجهي نحو التلفاز.

يا لها من صدفة عجيبة. مشهد من فيلم لهيفاء وهبي ترتدي فيه فستاناً أحمر ضيقاً يبرز كلّ مفاتن جسدها. تتمايل هي على النغمات وترقص، فيصير جسدها أكثر جمالا وإثارة.

لم أُجرّب يوماً الرقص الشرقي. لا قبل الحجاب ولا بعده. لم يكن الرقص أصلاً وسيلتي المفضلّة للتعبير، وإنما كنت أفضّل أن أرقص على أنغام الموسيقى الغربية لكونها لا تتطلب مني كلّ ذاك الإغراء الذي يتطلبه الرقص الشرقي.

الفستان الأحمر كسر جاجزاً داخلي. أريد أن أختبر الرقص بفستان يبرز مفاتن جسدي ويُعطي كلّ حركة راقصة حقها... أتناول أحد المناديل التي أضعها عادة على رأسي، وأزنّر به خصري الذي بدا صلباً من قلّة الحركة.

كم هي صعبة هذه المحاولة. أحاول أن أفرد يديّ في الهواء وأن أحركهما بليونة، إلا أنّ رنين الهاتف المفاجئ أشعرني بأنّ صوت دورية شرطة تُهاجم مكانا مشبوهاً موجودة أنا فيه عن طريق الخطأ. أسارع إلى فكّ المنديل عن خصري، وأطفئ التلفاز وكأنني أحاول أن أمسح بصماتي

عن مسرح الجريمة. هل الجريمة هي محاولة الرقص؟ أم إعادة أكتشاف مكامن الأنوثة في جسدي المقموع؟

رنين الهاتف يوقظني من غفوتي.

-"ألووو

-"ألو... إيه حبيبي

-"اشتقتِلِك"

-"وأنا كمان"

-"كيف كان نهارنا؟"

لن أخبره طبعاً بأنّ اليوم كان أسوأ أيام حياتي. لن أخبره أيضاً أنني عشت صراعاً مريراً كاد يخنقني بسبب نظرة واحدة من عينيه الى امرأة كان يُحبّها. أو ربما بسبب تجاهلها لي، كأنني لا أستحقّ اصلاً أن أكون غريمتها...

"كيف تراني كأنثى...؟" سؤال غير متوقّع أطرحه عليه وأنا غارقة في المرآة. أريده أن يُجيبني وكأنّه يراني الآن، أن يصف المرأة التي تزهو بنفسها مرتدية ثوباً أحمر. أطالبه بهذا وأعلم في قرارة نفسي أنّه لا يعرف منّي سوى المرأة الأخرى التي لا شكل لها ولا لون.

هو عادة لا يتمادى معي في أحاديث من هذا النوع. إنّه يُقدّر الخصوصية التي منحتها لجسدي. لكنّ ذلك لم يكن يروقني طوال الوقت. كثيراً ما استفزني احترامه الزائد لجسدي المُحتجب، والذي كنت أفسرّه أحياناً على أنّه تجاهل لي.

صامت هو. يُفكّر في السؤال الذي فاجأه ولخبط أفكاره المنتظمة كروزنامة. أسمع همسات أنفاسه. إنّه يُفكّر كعادته. "أنت التي أحبّها" ولماذا أحببتني أنا؟ أسأله، فيعود إلى صمته. غريب هو، يحسب كلماته

كما يحسب الأرقام. يختار كلماته بتأنٍّ. ينتقيها وكأنّه يُهندسها. فمن الصعب أن تخرج من فمه كلمة غير موزونة. وفي أشدّ لحظات عصبيته أراه مُغرقاً في التفكير في تراكيب جمله المنمقة كشخصيته. وربما تكون دراسته في العلوم السياسية والحقوق جعلت منه ضليعاً في تنميق الكلام وترتيبه، فتخرج عباراته من شفتيه ثابتة ومتسلسلة، كأنّها بنود في كتب القانون.

"لأنني أحبّك، وهذا ما لا أجد له تفسيراً" جوابه لم يرحني. لم يصلني ما أردت سماعه. لا أستطيع أن أسيطر على أعصابي أكثر، عليّ أن أوضح له حقيقة لا يعرفها. "وماذا إن كنت أجمل بكثير؟" "زيت على زيتون"، يُجيب ضاحكاً...

نقفل الخطّ قبل أن تعرف الراحة طريقها إلى قلبي.

لا شيء يُريحني... لا، لن أبقى صامتة. لن أصبر حتى ينتهي المعرض. لن أصبر حتى نتزوّج. لن أصبر يوماً آخر. عليه أن يراني كما أرى نفسي الآن! وأن يعرف أنّ المرأة التي أحبّها بعقله ستُبهر عينيه أيضاً. أتجه صوب المرآة. أحدّق فيّ من رأسي إلى قدميّ. هي صورتي التي أحلم بها، ولن أتنازل عنها بعد إذ وجدتها.

هكذا سيراني هو، ومعه العالم كلّه.

* * *

الآن عليّ أن أواجه نفسي بقوة. لن أخاف. سأرفع صوتي وأقول كفى. لن أعذّب نفسي أكثر بطرح هذا الكمّ من الأسئلة العقيمة. الآن سوف أجد جواباً يردع قلقي، وإن لم أجده سأخترعه. عليّ أن أقرّر، إمّا أن أنزعه، أو أُبقيه. هذه المرّة ليست ككلّ المرّات. ما أشعر به ليس مجرّد فورة مؤقتة. فأنا لم أعد أحتمل أن أعيش يوماً آخر كالذي عشته اليوم.

لن أتردّد. بل سأقولها الآن. سوف أخلع حجابي. لن أتمكن من الإستمرار في حياة أعيشها بروح امرأة غيري.

لا، ولن أقبل أن أعيش بجسد امرأة أقلّ من جسدي أنوثةً، وبوجه أقلّ من وجهي حُسناً. فالجمال طريدتي، أُلاحقها أينما كانت. طريدة أبحث عنها كلبوة جائعة. أنقضّ عليها بوحشية. ومن حقّي أن أستمتع بجمالي وأن تتمتّع به عيون الناس أيضاً. ومن حقّ جسدي عليّ أن أمنحه حقّه بالتنفّس والتحرّر. ينبغي أن يراني العالم كلّه كما أرى نفسي الآن، بهذا الفستان الأحمر المكشوف، والشعر الناعم المفرود. سوف أمشي إلى جانبه بكلّ ما أمتلكه من أنوثة، وسأشعر بغيرته عليّ وهي تحرق قلبه.

لا أحتمل الإنتظار يوماً آخر حتى أكشف نفسي أمامه، وأراه مسحوراً بي.

يجب أن يرى جسدي كما يرى أجساد الأخريات، لعلّه يعرف أنني أضاهيهنّ أناقةً وجمالاً. نعم، سوف أتخفّف من طبقات الملابس التي تلفّني من شعري حتى قدميّ. سأفتتح المعرض من دون حجاب يُكبّل مشيتي ويُعيق حركتي ويجعلني خائفة من آراء بعضهم في فنانة محجبة تسكن نصف لوحاتها أجساد أنثوية شبه عارية.

أحمل الحجاب الذي لففت به خصري قبل لحظات. أدنو من المرآة بالفستان المكشوف، وبيدٍ مرتجفة أرميه على الأرض. هكذا سأخرج بين الناس من الآن وصاعداً. لن يمنعني شيء من التمتّع بأنوثتي. للحظات أشعر بأنّ الأمر صعب ومُخجل، إذ ليس من السهل على من حجبت جسدها طويلاً أن تكشفه مرّة واحدة أمام الناس. وقد يُصبح هذا الجسد المكشوف حديثاً أكثر إثارةً وإغراء من أيّ جسد آخر.

أتأمّل نفسي في المرأة بعيون الآخرين. قلبي يخفق كأنني أقف عارية أمام الناس أجمعين. أفكّر في أن أخرج أولاً إلى صالة الجلوس المجاورة كي أخبر والديّ بقراري نزع الحجاب. أستصعب الموقف. لا، ليس الآن! سوف أنتظر قليلاً حتى أعتاد الفكرة. أنظر إلى وجهي مجدداً، إحساس بالضيق ينهش صدري، كأنني اقترفت ذنباً كبيراً. القلق الذي يسكنني يتضاعف بدلاً من أن يزول. ولكن أين الغرابة في ذلك؟ إنّه لأمرٌ طبيعي أن أشعر بكآبة بعد أن أتخلّى عن عادة ارتبطتُ بها منذ خمس سنوات تقريباً! ينبغي أن أصبر قليلاً، لعلّي أداوي روحي العليلة! أوجاع أضفتها إلى أوجاعي الأولى منذ أن وضعت حجاباً شطرني نصفين، والآن عليّ أن أستعيد هدوئي وسكينتي. لن أبقى مضطربة وتائهة بين عالمين متناقضين. سأعيش حياتي بوجه واحد، وروح واحدة. عليّ أن أختار، إمّا "البرقع" أو "البيكيني"، مع العلم أنّ البرقع ليس هو الحجاب، والبيكيني ليس هو السفور، وقد يختلف في مفهومي الخاص البرقع عن الحجاب، إلاّ أنّه بالنسبة إلى الآخرين ليس هو إلاّ شكلاً من أشكال الحجاب الكثيرة والمتنوعة.

قد يكون التخلّي عن شيء اعتدته صعباً في البداية، لكنني أرتاح في ما بعد. سأودّع الأحزان التي تولد داخلي وتنمو كلّ يوم. جسدي سيغدو ورقتي الرابحة، أبرزه وقت أشاء، أنافس به من أشاء، وأجذب إليّ به من أشاء. بهِ فقط أستعيد ثقتي بنفسي كامراة.

أعلم أنّ هذه ليست أفكاري ولا لغتي، لكنّ ثمّة امرأة أخرى تسكنني. كأنني أنا هي نينا، راقصة الباليه في فيلم "البجعة السوداء" مثلها، اعتدتُ أن أعيش حياتي بشخصية البجعة البيضاء، القدّيسة والنقيّة، ولمّا اضطررت للعب دور "البجعة السوداء"، رأيتني أجد صعوبة في إخراج المرأة الغاوية والساحرة المختبئة داخلي، ورحتُ أفقد توازني شيئاً فشيئاً.

أتصفّح وجهي وأحدّق في عينيّ. كسمكة تائهة أسبح في أفكاري. أكلّم نفسي كأنني أهرب من الأحاسيس الغامضة التي تتملكني.

أفتح النافذة، أبحث عن منفذ هواء. أحتاج نسمة واحدة استنشقها قبل أن أختنق.

رأسي مبلّل كأنني خرجت للتوّ من حمّام ساخن. أحسّ بتوتر عجيب، وهذا أمرٌ طبيعي في لحظة مصيرية في حياتي.

أحاول أن أهرب من سمّ أفكاري إلى عذوبة المرآة. أخيراً، لا حجاب يُغطّي جمالي. وهل أروع من أن يكون المرء على حقيقته. على طبيعته ونقاوته... لن أمثّل دور القدّيسة بعد الآن. سأكون امرأة راغبة، ومرغوبة.

أبتسم للمرآة. أسعى إلى أن أقنع نفسي بأنني سأستريح أخيراً.

فأنا فعلاً مُنهكة، وما عدت قادرة على المُكابرة. لن أسمح للأفكار المضنية أن تتملكني مرة أخرى. لكنّ الكآبة التي أهرب منها تتكثّف داخلي. أيُّ وساوس تسكن رأسي؟ جسدي ينتفض. أحسّ بوخز حادّ في رأسي بدلاً من الحجاب الذي خلعته، أو الحجاب الذي أتمرّن على خلعه.

الشجاعة تنقصني لكي أؤكّد حقيقة أنني ما عدتُ محجبة. لكنني في الواقع، أنا لم أخلعه بعد. فما من أحد رآني حتى الآن. إنني أتمرّن فقط على نزعه. أتنفّس بقوّة كتنّين.

أظنني لن أحتمل ما أنا مُقبلة على فعله. أجريت تمارين كثيرة على نزع الحجاب، لكنّها لم تكن تهزني لعلمي بأنّها غير جديّة. أمّا الآن فأحسّ كأنما أنزع شيئاً منّي. لكنني لن أضعف، ولن أتراجع... لن أبقى تائهة بسبب قرار اتخذته قبل أن أعرف مدى قناعتي به.

أحاول أن أنجو من خوف يكاد يُدمّرني. أتوجه إلى الدُرج الذي أضع فيه المناديل. أبعثرها ومن ثمّ أحملها كلّها بين كفيّ وأضعها في كيس وجدته بجانب الخزانة الكبيرة. أريد أن أتخلّص منها، نهائياً. أركل الكيس بقدمي، من ثمّ أقف صامتة كتمثال.

أقترب من الدرج ثانيةً، فأتأمله خالياً من المناديل، وأتلمّس رأسي عارياً من غطائه. أحسّ بأنّ شيئاً ما فيّ قد إنهار. يداي جامدتان كأنني مُقيدة. لا أعرف ماذا أفعل. قوّة خفيّة تُحركني، ولا أدري من يقف وراءها.

من الصعب أن يستمرّ الإنسان في مواجهة أفكار غريبة كالتي تهبّ داخل رأسي. لا أحسّ إنني فردٌ واحد، بل فيّ قبيلة موتورة، يتقاتل أبناؤها ويتخاصمون. أفكار مُتشابكة لا أعرف كيف أتخلّص منها. لو أنني أضرب رأسي في الحائط وأتخلّص منها، كلّها.

ما عدت أطيق هذه الحالات المرضية التي تنتابني. غصّة عميقة تكمش عنقي. ارتعاش غريب في ذقني. غشاوة تُعمي بصري، ثمّ ها أنا أبكي كما لم أبكِ من قبل. أتجمّد أمام المرآة وأحاول أن أشاهد هذا الزلزال الذي يجتاحني. أرفع رأسي عالياً كي تشرب عيناي الدموع التي تحملها، لكنّها تخرج عنيفة كما لو أنها سُجنت طويلاً بين مُقلتيّ. قدماي ما عادتا تساعدانني على الوقوف. أهبط فوق السرير وأسترسل في البكاء. أكمّم فمي بيديّ وأبكي كما لم أبكِ في حياتي.

ربما هو البكاء على نفسي التي خسرت بلمح البصر سكينتها وأمانها. ومن عساه يكون أسوأ حالاً منّي الآن؟ فمن أجل أن أعود الفتاة التي كنتها، عليّ أن أستغني عن الشيء الوحيد الذي يمنحني السلام والطمأنينة! ماذا أفعل وبمن أستعين في وقت لا أعرف ما فيه خيرَ نفسي؟

مُرتبكة، خائفة، لا أعرف ماذا أفعل. أنظر حولي لعلّني أعثر على ما يُريحني.

القرار ليس بالسهولة التي اعتقدتها. المسألة ليست مجرّد حركة أنزع من خلالها قطعة قماش عن رأسي. الأمر أعمق بكثير! أكتشف فجأة أنّ ثمّة رابطاً أقوى منّي يصلني بهذا الحجاب. أو أنّه رابط متين يصلني بتناقضاتي. وهل من شخص مُنقسم على نفسه أكثر منّي؟ أتمسك بجسدي المُحتجب، مع أنني أعشق الأجساد في عريها. أعاني حياة قائمة على الصراع، ولا أحبّ أن أكون خارجها. طالما تعصبت لتناقضاتي التي تُقسّمني بين جنة وجحيم، لكنني تعبت. التأرجح بين عالمين متباعدين أصابني بدوار رهيب. أنظر إلى الكيس الذي وضعت فيه المناديل. أمدّ يدي نحوه بطريقة آلية، ومن ثمّ أسحبها إلى الوراء. أشعر بأنني وحيدة، وضائعة. أستمرّ في نوبة البكاء، ولأوّل مرّة أحسّ أنّ البكاء يُطهّر النفوس، ويُخلّصها من خوفها. إنّه الخوف من أن أفقد طمأنينتي أو ربما إيماني. الإيمان الذي كانت بذوره مغروسة فيّ أصلاً، ومن ثمّ نمّيته بطقوسي، من الصلاة إلى الحجاب.

أتجّه مجدداً نحو الكيس القابع في الزاوية بين الباب والمرآة. أُمدّ يدي في داخله، وأخرج منه المنديل الذي أهملته قبل قليل. أتلمسّه بيديّ ومن ثمّ أضعه على رأسي، فيُغطّي شعري بينما لا يزال جسدي مكشوفاً. وبحركة لاإرادية أسجد وكأنني في لحظة توبة. أتضرّع إلى الله، علّه يُريحني من هذا الغمّ الذي ألقيت نفسي فيه. هل وجدت الآن جواباً عن سؤال حيّرني، وحيّر كلّ من يعرفني، طويلاً؟ فالحجاب الذي لم أشعر يوماً أنّه شيء من جسدي، أكتشف الآن أنّه جزء من روحي.

لا يُمكنني التخلّي عنه، ما دمت أشعر بضياع من دونه. الآن تأكدت أنني ما وضعته فقط إشباعاً لفضولي أو رغبة في التخفي، إنما ثمّة

التزام روحاني لم أكن أصرّح به سابقاً. وقد يكون التخلّي عن حجابي، تخلّياً عن إيماني كلّه. إلاّ أنني لن أسمح لنفسي أن تزهد براحتها. لن أخلع حجاباً رأب صدعاً داخلي وهدّأ قليلاً من خوفي وتوتري. لا، لن أتخلّص من شيء يُذكّرني دوماً أنّ الله معي، ويُعيد إليّ توازناً أفتقده في مرّات غير قليلة. لن أتخلّى عمّا اندفعت إليه بكامل رغبتي وقوّتي، في لحظات ضعف واستسلام.

عليّ أن أعترف أنّ تخبطي موجود فيّ قبل أن أغطّي رأسي بالحجاب. أحاسيسي غامضة وغريبة منذ أن بدأتُ أفهم تعقيدات هذه الحياة، بل منذ أن غدت التفاصيل الدقيقة هي أكثر ما يُثير اهتمامي وريبتي وجنوني.

فأنا كنت أعيش قبل الحجاب في عتمة رامبرانتية، مع أنّ أجواء أهلي تضجّ حياةً وضوضاء. ومعه فقط بدأت أستشعر أنواراً داخلي، فاتجهت إلى الرسم كإشباع بديل عمّا فقدته في الواقع.

أحياناً، أشعر أنني غريبة بهذا الحجاب، والآن أكتشفتُ أنني شريدة من دونه. لا أدري أولدت أنا شقيّة أم أنني كتبت على نفسي هذا الشقاء؟ هل كنت سأتخلّص فعلاً من ألمي بخلع هذا المنديل؟ لم أعطِ نفسي الفرصة لكي أجد جواباً شافياً، كأنني لا أستغني عن وجعي، بل كانني أرعاه وأغيه حتى يجعلني امرأة مختلفة عن غيري. أوليس الإختلاف عن الآخرين كان هاجسي؟

* * *

لن أخلع الحجاب إذاً. ولكن كيف عسايَ أداوي الجرح الذي سبّبته لي غيرتي. غيرتي من تلك اللعينة، وغيرتي على الرجل الذي أحبّه بقوة؟ كيف عساه يعرف أنّني أخبئ تحت حجابي

جسداً آخر لا يقلّ أنوثة وإثارة عن أجساد أجمل النساء اللواتي عرفهنّ قبلي...!

عليّ أن أجد حلاً وإلاّ لا أعرف إلى أين ستسير بي الأمور. لا حلّ آخر لديّ... فليرَني هو وحده! نعم... سوف يكتشفني غداً، وعليّ أن أكتشف جسدي معه. أن أرى نفسي بعينيْ رجل. جسدي سيخرج من ظلّه. سأكون أنا العارضة ورسّامتها.

خلال أسبوع واحد فقط سأرسم لوحة حياتي وتحفة معرضي "السولو الأول.

لوحة فيها أجد نفسي، وفيها أعثر على روحي الضائعة بين جسدين. بين هويتين. بين هيئتين مختلفتين. سأسمّيها "إيغو

لن أرسم جسدي قبل أن أختبر أنوثتي مع رجل أحسّ معه معنى أن تكون المرأة أنثى. ولكن كيف عساي أخبره بأمر مفاجئ كهذا؟ ماذا أقول له؟ "إسمع، أريد أن أكشف جسدي أمامك لكي أختبر أنوثتي معك" لا أستطيع. سيقول طبعاً إنني جُننت. لكنني لن آبه. سأعرض عليه طلبي.

سوف أقوّي قلبي وأعاود الإتصال به لكي أخبره بما قرّرت أن أفعله.

سأتزوج... غداً، نكتب كتابنا...

* * *

في اليوم التالي

ليلة أمس، لم تذق عيناي طعم النوم، ولو للحظات. كنت أحسّ بشيء كاللهيب يشتعل فيّ. وما كان لذاك الإحساس أن يُكبح جماحه لولا أنني صارحته برغبتي في استعجال زواجنا. أعرف أنّ الجنون الخامد فيّ أُوقد البارحة. لكنّ انكشافي أمامه من دون الخوف من الخطيئة، يُمكن أن يُحرّرني من هذا التشنّج الذي يتحكّم بروحي وجسدي.

ففي هذا اللقاء قد أعيد الهدوء إلى عالمي الذي يتصارع في صميمه الملائكة والشياطين. لا أدري من أين أتيت بكلّ تلك الجرأة وأنا أكلّمه. هو لم يتقبّل فكرة أن نكتب كتابنا بهذه السرعة، لكنني كنت مصرّة على ضرورة تواصلنا الحسّي، من غير أن يتعارض هذا الأمر والتزامي بالحجاب. وأنا أعلم أنّه يحترم فيّ إيماني وخجلي وعلاقتي بالله، وهذا ما يُعمّق ثقته بي واطمئنانه إليّ.

أخبرته بأنني أحتاج إلى أن أقترب منه، وأن أعتاد عليه قبل أن أنتقل للسكن معه في منزل واحد. رفضه كان قاطعاً في البداية. تمسكت بقراري وسألته عن المانع الذي يُعيق ارتباطنا الجسدي مادام الشرع يسمح لنا بأن نعقد قراننا ونعيش مرحلة الخطوبة من دون أيّة عوائق تفصل بيننا. وما لا يعرفه كثيرون أنّ المجتمع لا ينظر إلى مسألة "كتب

الكتاب" كزواج رسمي، مع أنّه زواج تامّ من الناحية الشرعية. وفي تلك المرحلة يُمكن للمخطوبين أن يتواصلا جسدياً، مع تمسّك الفتاة في كثير من الأحيان، بشرط المحافظة على عذريتها إلى حين إثبات الزواج قانونياً والإنتقال مع عريسها إلى بيتهما الزوجي. فالعذرية هي في ذاتها ثقافة في مجتمعنا، إذ مهما بلغت درجة ثقافة الأهل أو انفتاحهم، تبقى المغامرات الجنسية غير مُحبّذة بالنسبة إلى الإبنة "الأنثى"، بعكس الأبناء الذكور.

ساعتان وأكثر قضيناها على الهاتف بين أخذٍ وردّ، إلى أن وافق أخيراً على الفكرة من غير أن أعرف ما إذا كان مُقتنعاً بها، أم لا أظنّه أحسّ بتوتري وأراد أن يُريح أعصابي، لا سيّما قبل افتتاح المعرض.

لم أعرف كيف بزغ فجر اليوم واستيقظ والداي حتى سارعت إليهما، ومن دون إمعان في التفكير أخبرتهما عن رغبتنا في أن نعقد قراننا سريعاً بحجّة استكمال معاملات حصوله على الجنسية الأميركية. جملتان فقط نطقت بهما وبسرعة غريبة، كأنني أهرب من الموضوع وأقلّل من شأنه. أبديا استغرابهما في البداية، لكنهما سرعان ما وافقا.

لا أصدّق أنّني أقنعته وأقنعت والديّ بقرار مجنون اتخذته في لحظة مجنونة. ساعات قليلة تفصلنا عن حدث قد يكون أهم حدث في حياتي. الوقت ضيّق للغاية. عليّ أن أقصد النادي الرياضي حتى أحرّك جسدي المتكلّس، وأن أزور صالون التجميل بعدما نسيت كيف تهتم النسوة بمظهرهن. عليّ أن أعتني ببشرتي وأن أضع قناع الكافيار الذي أخبرتني صديقتي عن مفعوله السحري في إزالة تعب الوجه وعن فوائده في تنشيط خلايا البشرة وتجديدها وإعادة النضارة إليها. لن أعبث بلون شعري

طبعاً، سأكتفي بتسريحة بسيطة تليق بشكل وجهي. كم أستغرب حالي وأنا أردّد مثل هذه العبارات التي نسيتها لكثرة ما أهملتها! أتصل بصديقتي حتى أستدلّ منها على المركز الذي تقصده أسبوعياً للإهتمام بجمالها. هي ليست صديقتي. إنّها بمثابة شقيقتي الثالثة. وأنا بمثابة شقيقتها الوحيدة. فهي لا أشقاء لديها.

والدها كان قيادياً في الحزب الشيوعي، توفيّ قبل ثلاثة أعوام بسرطان الرئة، وأمها كوبية تعمل في سفارة بلادها هنا. هي الآن تعيش مع أمها، لكنّها تقضي وقتها في الطائرة أكثر مما تقضيه في منزلها. تسافر للمشاركة في احتفالات وتدريبات ومسابقات رقص في مختلف الدول. كانت تهوى الرقص منذ الصغر، وبعدما سجلّها والداها في معهد خاص لتعلّم رقص الباليه، لفتت موهبتها المبكرة انتباه أساتذتها الذين اكتشفوا لديها قدرة على تعلّم خطوات الرقص بسرعة هائلة، فانتقلت إلى مدرسة متخصصة لتعليم الرقص، حتى صارت وهي في السادسة عشرة من عمرها راقصة محترفة في مختلف أنواع الرقص، من الفالس والتانغو إلى السامبا والرومبا، وصولاً إلى الدبكة والرقص الشرقي.

لم تكن تجد متعتها إلاّ في الرقص. "لا أعرف سوى أن أرقص كانت تقولها دائماً، لكنّ والدها كان مُصرّاً على أن تستكمل دراستها، إضافةً إلى احترافها الرقص. كانت تحسدني لأنّني نجحت في أن أجعل من هوايتي مجال تخصصي الجامعي. ولأنها لم تكن تريد أن نفترق، اختارت أن تلتحق بمعهد الفنون وأن تدرس المسرح. أرادت أن تكون قريبة مني أنا، ومن هوايتها الأساسية، باعتبار أنّ المسرح يعتمد بالدرجة الأولى على الحركة الجسدية والأداء التعبيري. بعد التخرّج شاركت في بعض العروض المسرحية الراقصة في أكثر من عاصمة عربية وأوروبية، وهي تُشارك في مسرح كركلاّ كراقصة زائرة، إلاّ أنّها تُركّز حالياً على الفرقة التي أسّستها

حديثاً، وعلى النادي الذي تملكه لتعليم الرقص. هذا هو شغفها الذي سرقها منّا جميعاً. ما عدت أراها كما قبل، لكنها مازلت صديقتي "الأنتيم" ومع كلّ مشاغلنا وارتباطاتنا، لا يُمكن أن يمرّ شهر واحد من دون أن نلتقي مرّة على الأقلّ.

نحن قريبتان جداً إلاّ أننا مختلفتان إلى أقصى الحدود. ولطالما اعتقدت أنّ سرّ انجذاب واحدتنا إلى الأخرى سببه ذلك الإختلاف. كلتانا تُكمّل نقص الأخرى. أنا خجولة وهي جريئة، أنا متحفظة وهي واضحة، أنا مؤمنة وهي لادينية... نحن متناقضتان حتى في الشكل. مع هذا، واحدتنا تفهم الأخرى حتى قبل أن تتكلّم.

لا أحد يُصدّق أننا صديقتان إلى هذا الحدّ. المفاجئة بدأت منذ أن وضعت منديلاً على رأسي. أن تُصادق فتاة محجبة راقصة معروفة كانت بالفعل فكرة مُستغربة، والدهشة كانت تبلغ ذروتها عندما يرانا الناس معاً، الراقصة والمحجبة.

وكانت هي من أكثر الأشخاص الذين عارضوا فكرة حجابي. وأذكر أنّ والدها دعاها إلى مقاطعتي كوسيلة للتأثير عليّ كي أتراجع عن خطوة التقيّد بزيّ لا يُناسب عقلي المتحرّر. لكنني لم أتأثّر. بل تعمّق إيماني بفكرتي وإصراري عليها، إلى أن عادت واعتذرت عن عدم احترامها رغبتي.

لم أكلّمها منذ ثلاثة أسابيع تقريباً. فهي مشغولة كالعادة، وأنا أعيش خلال هذه الأيام في عزلتي، لكنني أتصل بها الآن سائلةً إيّاها عن عنوان مركز التجميل الذي تقصده.

-"لاااااااا... لا اصدّق! لكِ أنتِ؟ آه، كنتُ نسيتُ أنّك امراة يُمكن أن تهتمّ بمثل هذه الأمور

لها الحقّ في أن تقول ذلك. فأنا بالغت في تجاهل أنوثتي، واكتفيت خلال الفترة الماضية بتزويق لوحاتي، فقط. كأنني كنت أضع داخلها ما يجب أن أكونه. وليس ما هو أنا. كنت أرسم وكأنّ الرسم هو تعويض عن نقص ما أحسّه ولا أبوح به. أرسم بروح هنري دو تولوز لوتريك، الفنان الأعرج الذي عانى صغيراً مشاكل في النموّ، وعاش سجين جسده غير المكتمل، إلى أن استحالت عقدة نقصه مصدر إلهامه. لوحاته تعتمد على الحركة الجسدية أولاً أبطاله جميعهم يركضون ويرقصون ويفعلون ما لا يستطيع هو أن يفعله في حياته اليومية. وفي إحدى أجمل لوحاته "مولان روج" رسم لوتريك بحرفية عالية أجساداً مثالية تتمايل بخفة ورشاقة، كأنّه يريد من ورائها أن يرسم ما يتمنى أن يكونه هو. هكذا تغدو اللوحة هي السبيل الوحيد الذي يُمكن للفنان أن يصل فيها إلى الكمال.

وأنا أعترف أنني تجاهلت أنوثتي إلى أن أعادتني المرأة التي صادفتها البارحة إلى روحي وجسدي، بعدما عشت في أرواح- وأجساد- بطلات اخترعتهن بريشتي وألواني.

تلك اللحظة في المقهى ربما تكون أهمّ حدث في حياتي، لأنني فيها اكتشفت أناي، ولاحظت أنني لست بالحجم الذي كنت أرى فيه نفسي. فأنا طالما اعتقدت أنني المزيج السحري للإنسان المثالي: الإيمان، الفنّ، الجمال. وللفنانة المثالية أيضاً: الطفولة، النضج، الحكمة. أشعر أحياناً بأنني امرأة تجمع في داخلها ثلاث نساء من مراحل زمنية مختلفة. أحسّ كأنني أجسّد وحدي شخصيات إدوارد إلبي في مسرحيته الشهيرة "ثلاث نسوة طويلات" أنا الشابة العشرينية التي تعيش عشقاً ممزوجاً بلذّة خفرة، فتضعف أحياناً أمام رغباتها الجامحة، لكنّها غالباً ما تقمعها وتعرف كيف تسيطر عليها. وأنا أيضاً المرأة الخمسينية المتوترة

داخلياً والمنفعلة بصمت. وأنا هي المرأة التسعينية التي تقضي وقتها متحسرّة على جسد جميل ضاع منها، أو ربما أضاعته، لكنّها ربحت مكانه حكمة كبيرة لا يُمكن أن يحظى بمثلها الآخرون. هذه التوليفة التي تُكوّن شخصيتي والتي تجعل من الجسد وسيلتها وغايتها لطالما كانت نقطة قوتي.

ولكن ما حصل معي البارحة جعلني أشعر بأنني لا أعيش حياتي كامرأة، وإنما كظلّ امراة. ولا أدري إن كانت لحظة انجلاء الحقيقة في المقهى البحري قد انقلبت عليّ خيراً أم شرّاً. ففي الإبداع تتحوّل الأخطار عادة إلى حوافز والشرور إلى نِعَم، لما فيها من قدرة على استفزاز الطاقات النائمة في النفس. تلك اللحظة أيقظتني من استرخائي لأواجه مرّة جديدة، وفي شكل أخطر، السؤال المرعب ذاته: "لماذا؟" لماذا وضعت الحجاب؟ لماذا أحرم نفسي من الإستمتاع بجسد من أحبّه بعنف؟ لماذا أخفي جسدي عنه؟ لماذا أعطيه المبرّر للبحث عن حاجته في أجساد الأخريات؟ لماذا أكتفي بأن أكون فنانة تستلّذ بقتل الأنثى التي في داخلها لتستخلص منها أرواح نساء أخريات؟

-"إسم المركز هو "بيلاّ ستيلاّ"، خلف الحديقة العامة. أخبريهم أنّك صديقتي وسوف يهتمون بك جيداً. وعندما أراك سوف تُخبرينني عن سرّ هذه الزيارة المفاجئة إلى الصالون"

أضحك، لكنها تقاطعني قائلة: "آه، قبل أن أنسى، أريد أن أخبرك بشيء مهم. لديّ أربع بطاقات دعوة لحضور سهرة تُقيمها السفارة الكوبية في مطعم كوبي لذيذ، إثنتان منهما لك ولخطيبك. سهرة من ساعتين فقط، أعرف أنك بحاجة إليهما والأعذار غير مقبولة. إنتهى البيان... تشاااااو .

"أوكي"، أجيبها، مع أنني لم أفكّر في الدعوة، ولا أعرف ما إذا كنت سأذهب أم لا فأنا اعتدت خفتها وديناميكيتها. هكذا هي، تتكلّم، تُقرّر وتُنهي الحديث.

نُقفل الخط. أتجه بسيارتي نحو صالون التجميل والرغبة تملأني في إعادة إحياء الأنثى التي وأدتها داخلي، كلّ تلك السنوات.

لم أكن أدري، قبل زيارتي هذه إلى هذا المركز، أنّ العناية بالجسد وجماله هي أيضاً عناية بالقلب والروح. ثلاث ساعات قضيتها هناك كانت كفيلة بأن تزيل عني تعب ثلاث سنوات.

أدخل غرفتي بعد عودتي من "السبا" بروح أخرى. كأنني امرأة جديدة. الآن فهمت سبب إدمان صديقتي على هذا المكان. يدا الفتاة التايلندية كانتا تتلاعبان بجسدي كأنّه كتلة من عجين. أظنّها كانت تُدلّك روحي أيضاً. ولا أعرف لماذا نقول "تُدلّك" كتعبير، بدلاً من "تُدلّل" فأنا أرجّح أن يكون مخترع هذه الكلمة قد أخطأ سهواً بالحرف الأخير، فجعله كافاً بدلاً من اللام.

وأنا ممدّة على السرير الأبيض في غرفة شبه مُعتمة، كانت رائحة الكريم بالفانيلا والعسل تملأ أنفي، ورئتيّ. لم أكن أرى شيئاً. أضواء بنفسجية خافتة فقط، تُضفي على المكان الحميم سحراً، وشموع تنثر رائحة الخُزامى أو "اللافندر" في المكان كلّه.

نمتُ على بطني وأغمضت عينيّ وتركت نفسي بين يديّ تلك المدلّكة الأسيوية، فشعرتُ بأنني أعلو شيئاً فشيئاً. كنت أطير وأنا في مكاني. من فرط خفّة جسدي أحسست بأنني أسبح فوق السحب. ومازال الشعور نفسه يُرافقني حتى الآن. وعندما كانت "الكوافوز" تغسل شعري وتُصففه نسيت للحظات من أنا، وكدت أنسى السبب الذي أودى بي إليها. كأنّها كانت تسحب من فروة رأسي كلّ تشنجّاتي

وهلوساتي وأسئلتي. وأنا لم أعتد على مثل هذه المشاعر في حياتي. إنني في حالة استنفار شبه دائمة.

أفكار كثيرة تشغلني ولا أحتمل صبراً حتى أحققها. أريد كلّ شيء وأخاف من أيّ شيء. أغامر ومن ثمّ أندم. الهدوء الذي يبدو على صفحة وجهي لا يعكس حجم التخبطات التي أعيشها. فأنا أحسّ أحياناً أنني وُلدت من ماسّ كهربائي وليس من علاقة حبّ بشرية.

أعود إلى المرآة. الماسك الذي وضعته على وجهي يزيده نضارة، وقصّة شعري الجديدة تزيدني أنوثة. أظنني جاهزة الآن لكي أراه. لكنّ موعدنا غداً.

* * *

إنها الساعة التاسعة مساءً. تصلني رسالة منها بالإنكليزية. "أنتظركما في مطعم la bodegita del medio. حبيبي الجديد معي وأوّد أن أعرّفه بكما. لا تتأخرّا. بيزوس

هي غالباً ما تختم رسائلها التي تبعثها إليّ بالفرنسية أو الإنكليزية بكلمة "بيزوس"، وهي تعني قبلاتي، بالإسبانية. إنها من الأشخاص الذين يعبرّون عن أنفسهم بعفوية كبيرة، من غير أن تضع رقيباً على أحاسيسها وكلماتها وتصرفاتها. وأنا غالباً ما أقف مفتونة أمام قدرتها على التعبير عن أحاسيسها الصارخة، وعلى تعرية ذاتها أمام الآخرين، سواء بارتداء ملابس جريئة تكشف مفاتن جسدها الليّن والرشيق، أو حتى بانتقاء عباراتها التي تُصوّر شخصيتها بوضوح. إنّها تعيش حياتها وكأنها تقول للعالم: انظروا... هذه أنا. ولا شكّ أنّ مثل هذا السلوك لا يبرح يُدهش شخصاً مثلي، يُبقي كلّ شيء موصداً داخله.

صداقتنا لم تُغيّرنا. كلّ واحدة منّا بقيت كما هي. أحياناً أحسدها، وأظنّها تحسدني في أحيان كثيرة. أنا أُدهشها بقدرتي على الإنعزال والإستمتاع بعالمي بعيداً من صخب العالم، وهي تُدهشني بقدرتها على التماهي مع العالم كلّه وكأنها تعيش فاتحةً ذراعيها للحياة. لكنّنا نعرف، ومن حولنا أيضاً يعرفون، أنّ لا يُمكن لواحدة منّا أن تُصبح الأخرى. وبرغم التناقض الكبير في أسلوب حياتنا، اكتسبت كلّ منّا بعضاً من عادات الأخرى وأضحت لا تتخلّى عنها في أوقات معينة. فمع أنّها لا تُصلّي ولم يكن للإيمان دور في حياتها، أحبّت فكرة لجوئي إلى الله في لحظات الشدّة. أعجبها كيف أنني أرفع عينيّ إلى السماء وأتأملها كأنني أنظر في وجه الله وأستجديه وأشكو إليه سوءاً ألمّ بي، وإنّي لأرجو الله حتى كأنني أرى بجميل الظنّ ما الله صانعُ، وقول الشاعر هذا حفظته عن جدتي التي غالباً ما كانت تردده أمامي.

تلك العادة أخذتها صديقتي عنّي وجعلت منها صلاتها التي تُهدّئ بها نفسها. أمّا أنا فتعلمت منها عادة واحدة جعلتني أكتشف القوى الخفيّة داخل كلّ مقطوعة موسيقية. فهي امرأة مسكونة بالموسيقى، وما رقصها سوى ترجمة لتلك النغمات التي تحتدم داخلها. فهي غالباً ما كانت تحاول في لحظات الملل والتعب والإرهاق أن تُخفّف عن نفسها بطريقة غريبة، طريقة تعلّمتها حتى أدمنتها. كانت تصطحبني معها في السيارة، تُقفل الزجاج، وتضع موسيقى السلو أو الجاز مرّة وأغنيات جاك بريل وشارل أزنافور أو أندريا بوتشيللي مرّات أخرى وتطلب مني أن أنصت إلى الموسيقى حتى أستسلم لها، ومن ثمّ أتأمّل وجوه المارّة وعيونهم وحركاتهم... أو تطلب مني أن أحدّق في منظر جميل كغروب الشمس، خلف البحر، أو طيران سرب من العصافير... وعبر هذه اللعبة العجيبة اكتشفت أنّ الموسيقى التي نسمعها يُمكن أن

تؤثّر في نظرتنا إلى الأشياء. فالموسيقى يُمكن أن تُبدّل حقيقة المشاهد المتلاحقة والمتسارعة التي يُمكن أن نراها من خلف زجاج السيارة، فتزيد الجمال جمالاً والقبح قبحاً، وبؤس الناس بؤساً. تعلمت منها كيف أتأمل العالم من الداخل عبر صوت الموسيقى التي لها سرٌّ لا يفقهه كثيرون.

آه... ذكرياتي عنها تسرقني من تحضير نفسي للقائها في سهرة الليلة التي لم تكن "على البال ولا على الخاطر

عليّ أن أحضّر نفسي الآن، وبسرعة. لقد وصلت، هي تنتظرنا في الحفلة، ومن غير اللائق أن ندعها تنتظر كثيراً.

انتقاء ملابس تناسب سهرة الليلة مهمة ليست سهلة. وهذه مشكلة غالباً ما أواجهها في دعوات من هذا النوع. فماذا عساي أجد بين ملابسي؟ هل لديّ ما يتناغم وجوّ حفلة كوبية صاخبة؟ لا أعرف أصلاً كيف سأبدو بحجابي وسط جوّ كهذا؟ فأنا لم أعتد هذه المناسبات. وغالباً ما كنت أمرّر دعوات صديقتي الكثيرة إلى شقيقتيّ اللتين تميلان إلى أجواء السهر والصخب والحفلات الراقصة، على عكسي أنا...

ولكن، لماذا أُرهق نفسي بكلّ هذه الأسئلة الآن. سأذهب كما أنا. لن أستعير ملابس امرأة من عالم آخر لكي يتقبلني الآخرون. سوف أعيش حريتي الاجتماعية في عالمي الخاص من غير أن أخبئ هوية اخترتها لنفسي. ومثلما اعتدتُ أن أناقش بصوت عالٍ مسألة الإلحاد عند نيتشه من غير أن يهتزّ إيماني، سوف أذهب إلى الحفلة الكوبية من غير أن أخجل بحجابي.

* * *

أدخل المطعم كأنني أدخل عالماً آخر مُغلقاً على ذاته. أخالني دخلت لوحة سوريالية، يتحوّل الناس فيها إلى أشباح. الإضاءة الخافتة تُساوي بين الجميع، إناثاً وذكوراً، فتجعلهم هياكل أشخاص. الأضواء التي تعلو وتخفت بسرعة البرق تُبطّئ حركاتهم. لأوّل مرّة ألبّي دعوة من هذا النوع.

لا أعرف إن كانوا هم أيضاً ينظرون إليّ باستغراب. لكنّني أحمدالله أنّ الأضواء الخافتة تستر كلّ التفاصيل. أحاول أن أبدو طبيعية جداً. أختلق حديثاً مع خطيبي وصديقتي وحبيبها. أرفع صوتي جاهدة كي يتمكنوا من سماعه. تتوقف الموسيقى الصاخبة فجأة، وتُنار الأضواء. فيتجلّى صوتي عالياً كصوت آلة فريدة شذت عن الإيقاع. يضحكون، فأداري حَرَجي بضحكة عالية.

تنطفئ الأضواء تدريجاً لتُنير المنصّة الرئيسة فقط. يدخل ثلاثة رجال سُمُر البشرة يرتدون بذلات من اللينين الأبيض، وفي يد كلّ واحد منهم آلة موسيقية غريبة. إنّها الفرقة الكوبية التي تُحيي السهرة.

يُصفّق الحاضرون في الصالة، لكنّ كفّي صديقتي كادتا تتمزقان من كثرة التصفيق. هي دائماً هكذا، تُعبّر عن إحاسيسها بانفعال. وربما لهذا السبب لا أراها مُكتئبة، إلاّ في ما ندر. هي تُفرغ كلّ ما في داخلها ولا تترك شيئاً في قلبها يؤلمها.

"تضمّ هذه الفرقة فنانة رائعة في رقصها وغنائها، لكنّها لن تحضر اليوم لأنّها في إجازة لمدّة أسبوع" تقول صديقتي. إنّها تعرف أعضاء الفرقة بأسمائهم، وهم أيضاً يعرفونها. كلّ من في المطعم يعرفها. فهي نصف كوبية وزبونة دائمة فيه.

يعزف أحد أعضاء الفرقة ويُغنّي، بينما يعزف الآخران ويرقصان. يُحركان كلّ جزء من جسديهما بحرفية عالية، ويتنقلاّن على المسرح بخفّة

خيالية وكأنهما يمشيان على سطح القمر. يرقصان ويُغنيان، من غير أن تؤذي الحركة حناجرهما أو تُتعبها. يدور الأول حول نفسه مُطلقاً العنان لصوته الرخيم، بينما يهوي الآخر أرضاً ويمشي الثالث وهو يُحرّك ردفيه كراقصات الريو دي جينيرو، من غير أن يخسر شيئاً من رجولته التي تتبدّى في عضلات جسده البارزة.

هذه الموسيقى المُدهشة لا تدخل أعماقك، وإنما أنت من يدخل أعماقها. إنها تبتلعك، وتبتلع المكان أيضاً بكلّ من فيه. تتأجّج الموسيقى إلى حدّ التوحّش. الكلّ يفقد سيطرته على ذاته، حتى يغدو الجميع أتباعاً لها. لا أحد يُقاوم. بل الجميع مستمتع بانقياده واستسلامه. يلحقون إيقاعها بأكتافهم التي تتلوّى يميناً وشمالاً، وبأردافهم التي تكاد تقفز عن المقاعد. الموسيقى التي أسكرت عقول الحاضرين لم تسلبني قوة النظر التي أتسلّح بها لمراقبة هذا المشهد المُذهل. مشهد الخضوع اللذيذ كما في فيلم "الرقص للمخرج الإسباني إتوريه سكولا

وأنا أيضاً أتمايل على إيقاع الموسيقى اللاتينية الساحرة. يبدو أنّ مفعولها المُسكر قد وصل إلى رأسي.

تجتاحني رغبة عارمة في أن أرقص، مع أنني لم أكن يوماً من هواة الرقص. ولطالما حاولت صديقتي إقناعي بأن أسجّل نفسي في نادي الرقص الذي تملكه، لكنني أفشلتُ كلّ محاولاتها.

كانت تُقنعني بضرورة تعلّم بعض الخطوات الراقصة كرياضة، إن لم تكن كهواية، لكنّ رفضي كان قاطعاً. لا أعرف لماذا تمنيت فجأة لو أنني أقوم الآن وأرقص. لو أنني أسدل شعري على كتفيّ وأرقص على إيقاع هذه الموسيقى الحارة. أتخيّل نفسي وأنا أضمّ يديّ إلى خصري وأرفع اليد الأخرى وأحرّك ردفيّ على طريقة "جي لو"، ومن ثمّ أُخفض شعري وأرفعه لأختم رقصتي بحركة تستدعي تصفيق الحاضرين.

إذا كانت الموسيقى قد فعلت بي ما فعلته، فكيف بها وهي الراقصة المحترفة والعاشقة لهذا الفنّ؟ أنظر إليها فلا أراها في مكانها. أبحث عنها، فلا أجدها أمامي، ولا خلفي. وقبل أن أهمّ بالسؤال عنها، أسمع صوت الصفير والتصفيق.

ألتفت إلى المنصّة. إنها هناك... تتوسّط المسرح. الأضواء المُسلّطة عليها تزيدها جمالاً وحضوراً. الدائرة المشعة التي تُحيط بها تجعلها نجمة أسطورية... ترفع بأصابع يديها فستانها الأزرق الطويل لتكشف عن ساقيها الجميلتين في حركات مدّها وجزرها. تعلو النغمات فتزداد قامتها شموخاً، وكأنّ جسدها قطعة متداخلة مع الموسيقى. تدير ظهرها وترفع شعرها العسلي المموّج بخفة، ومن ثمّ تُحرّك ردفيها على الإيقاع الذي تحسّه لاهثاً من أجل اللحاق بها. تتوقف الموسيقى. الموجودون غارقون في تأملهم للجسم الأنثوي الذي توقفت حركته فجأة، وكأنه هو الذي يتحكّم بحركة الموسيقى وإيقاعها. تسدل يديها فينسدل شعرها الغجري المموّج. يُطلق العازفون العنان لآلاتهم الكوبية الأصيلة، وتُطلق هي العنان لجسدها الذي يخرج من حدود الزمان والمكان ليمضي في رحلة بوهيمية، من غير أن يخشى شيئاً. جسدها الأنثوي النحيل يستحيل قوة فيزيقية متوحشة، يشعر أمامه الرائي بأنّه لا شيء. العين تعجز عن تحديد مكانها. تدور بخفة طائر بين زوايا المسرح الذي لا يتسّع لها. تتنقّل بخطوات فنية مُتقنة تحسّ أنها تُشارك في صنع إيقاع العالم. أشاهدها بدهشة. لم يسبق أن استمتعت برقصها الفردي إلى هذا الحدّ. أصدّق الآن معنى أن تكون الحركة غذاء الجسد.

الظلمة تلفّنا جميعاً، وجسدها المُحلّق في فضاء المكان يمتصّ النور كلّه. الهالة المنيرة تُحيط بها. إنها تغمض عينيها. لا تريد أحداً أن يراها. أو ربما هي لا تريد أن ترى أحداً. هي تكتفي بذاتها. كلّما حرّكت جسدها،

أراها تنسحب نحو داخلها. دائرة الضوء تلحقها، هي وحدها. إلاّ أنّ انصهار جسدها بالنغمات يزيد من عزلتها. ترقص وكأنّها تحلم، وكأنّها تعشق، وكأنها تثور، وكأنها تزهد، وكأنّها تشفى.

أظنني أفهمها الآن أكثر من أي وقت مضى. ولا شكّ في أنّ فلسفة حياتها الإيجابية مُستقاة من حركة جسدها التي تُطهّرها من أدران هذا العالم ومشاكله.

أنا أرسم الجسد أثناء بحثي عن الحقيقة، أمّا هي فترقص بجسدها لأنّها وجدت الحقيقة. حقيقة أنّ الجسد هو وحده الحقيقة المطلقة، وأنّ كلّ ما عداه وهم. حقيقة أنّه في الأصل كان الجسد، وكلّ ما عداه كان تُرابا. تتحرّك وكأنّها تُعلن للعالم أنّ الإنسان يولد بولادة جسده، ويموت بموته. رقصها يقول هذا كلّه، وأكثر.

أتأمّل وجه حبيبها. أراه يلتهمها بعينيه. يُفكّر بجسدها، بكلّ جزء من أجزاء هذا الجسد المتعرّق المثير. أخاله يريد أن يصرخ أمام كلّ هؤلاء الرجال أنّ هذه المرأة الجميلة هي لي، الكتفان المتحررتان هما لي، والنهدان المتبرعمان تحت الفستان الأزرق اللاصق هما لي، والظهر الأسمر المبلّل بمائها هو أيضاً لي. الرجال الآخرون يحسدون الرجل الذي هي له. ولا أعرف إن كان خطيبي، الذي لم يرَ أكثر من وجهي ويديّ، يحسد الشاب الذي يجلس أمامه.

لا أريد أن أنظر في عينيه. أخاف أن أرى لمعتهما. أخاف أن أراه وهو يشتهي امرأة غيري، أنا المرأة التي لا تشتهي في الدنيا رجلاً سواه. هذا الخوف هو أكثر ما يُعذبني.

لماذا لا أنظر إليه وأتأكّد من حقيقة مشاعره تجاهها؟ هل أخاف فعلاً أن أكتشف خيانته لي، أعني خيانته الفكرية لي؟ أم أنني أخاف التأكّد من إخلاصه والقضاء بالتالي على مصدر من مصادر آلامي

وعذاباتي؟ أحسّ للحظات أنني صرت أحبّ غيرتي، وأتلذّذ بتوتري، وأعشق خوفي. أتأملّه وأنا أعرف في قرارة نفسي أنّه معجب بها مثل كلّ الرجال الموجودين هنا. ربما جميعهم يعتبرنها الآن "قطعة" جميلة يُريدونها لمجرّد أنّها كشفت جسدها وتركته يتكلّم عنها. لكنني لا أراها كما يرونها هم. جسدها في حركته الراقصة الجميلة لم يعد في نظري حسيّاً بقدر ما أضحى روحانياً. هذا الجسد الذي يزداد خفة كلّما ازدادت قوة حركته لا يُمكن إلاّ أن يكون جسداً صوفياً، يسمو بقدر ما ينفعل. يتخفّف بقدر ما يتعرّق. يتنوّر بقدر ما يهذي. هي لا تحسّ بالوقت، ولا أحد ممّن يراها يحسّ بالوقت. سرعة جسدها قبضت على سرعة الزمان وأعادتها إلى أصل الحياة. هي لحظة مقدسة كمناجاة. للجسد الراقص معانٍ كثيرة بالنسبة إليّ، وقد عبّرت عن بعضها في لوحة عنوانها "التنورة"

تتسارع الموسيقى كلحظات بلوغ النشوة، وتتسارع حركة جسدها إلى أن يستحيل كتلة طائرة لا يحدّها مكان. تتوقف الموسيقى فجأة فتهوي أرضاً. جسدها يتجمّد وعيناها مازلتا مغمضتين. ينهمر التصفيق من كلّ ركن لتعود معه إلى الحياة. حياتنا نحن، بعيداً عن العالم الذي سافرت إليه بجسدها. هي تعود إلى واقعها، وأنا أعود إلى أحلامي. أنظر اليه وهو يلتهم السوفليه بالشوكولا أتأملّه بنهم. أخاله يُراقصني. أسرح فيه، وفي ذهني تتردّد بعض كلمات بصوت أمّ كلثوم: "أغداً ألقاك؟"

***

في المحترف

الغد الذي نعتقده بعيداً يُقبل مُسرعاً على إيقاع هذا العالم. الأحداث التي من شأنها أن تهزّ حياتنا وتُبدّلها، لا تؤثّر في حركة الزمن، أو في مواقيت الليل والنهار. اليوم الذي كنت أخشى أن تنتهي الدنيا قبل أن يأتي، جاء برتابة كلّ الأيّام. والليلة التي كانت أطول ليالي حياتي انقضت. البارحة لم يغمض لي جفن! الصخب لم يترك لي فرصة كي أغفو، ولو لبضع دقائق. لم يكن الصخب خارجياً، بل كان داخلي أنا. صورتها وهي ترقص، تصفيق الناس، صوت الموسيقى الكوبية، المرأة اللاتينية الملامح، مشهد اللقاء، جسدي المكشوف أمامه، نظرته إليّ، اللوحة المنتظرة، المعرض الذي لم يبقَ أمامه إلا خمسة أيّام.... أفكار كثيرة انهالت على رأسي كأمطار مفاجئة لم أتمكّن إلاّ من الاستسلام لها.

قضيت ليلتي أتقلّب في سريري من جهة إلى أخرى علّني أجد لحظة أغيب فيها عن صخب أفكاري، ولكن من دون جدوى. لم أشعر بالنعاس إلاّ مع انبلاج النهار. يقظة الشمس من غفوتها والعالم من سكونه جعلتني أتخفّف من أرقي، وكأنّ العالم استعار صخبه مني وأعارني هدوءه. نمت في الوقت الذي كان مفترضا بي أن أصحو فيه. غرقت في لحظة غياب لم أشعر بصفوها إلا حينما أيقظتني مكالمته. "لا ينبغي أن نتأخّر. موعدنا الساعة التاسعة عند الشيخ"

لا أصدّق أنّ خطيبي أمام الناس أضحى زوجاً لي أمام الله. بضع كلمات ردّدناها أمام رجل دين جعلت من حلمي المستحيل حقيقة. "هل تقبلين به زوجاً لك؟... نعم أقبل"، وكأنها كلمات سحرية تفوّه بها كلانا لتنقلب معها حياتنا رأساً على عقب.

ثلاث سنوات منحته فيها أصدق مشاعري، لكنّني لم أتمكّن، باسم الحبّ وحده، أن أهبه جسدي. وها أنا الآن أحضّر نفسي حتى أمنحه إيّاه لمجرّد أن نطقت بكلمتين أمام رجل دين وشهود. لم أستطع أن أفعل ذلك بعيداً عن الصورة التقليدية، أنا الفتاة الهاربة من كلّ ما هو تقليدي.

لا أدري لماذا انتظرت إلى الآن أو ممّن كنت خائفة؟ هل هو الخوف من الخطيئة أم خوفي من نظرة رجل شرقي إلى امرأة تهبه جسدها قبل الزواج؟ هل يغضب الله فعلاً من لقاء جسدين لا يجمعهما سوى الحبّ أم أنّ الناس هم من رسموا هذه الخطيئة في عقولنا؟ هل الحرية الجسدية حق أم تجنٍّ؟ لا أعرف... أسئلة كثيرة تُحاصرني الآن. لا أدري لماذا لا أرحم نفسي حتى في أشدّ لحظات تصدّعها!...

أواجه نفسي مرّة جديدة، والسؤال نفسه يعود ليُسيطر عليّ: "لماذا اخترت أن أسلك هذا الطريق؟ وهل أنا سعيدة به فعلاً؟" ربما أعرف الأجوبة وأتحاشى الإعتراف بها، وإن أمام نفسي. هذا الحجاب الذي جعلني أختلف عن بيئتي، أحالني إلى واحدة من آلاف بنات هذا الجيل. لماذا أصرّ عليه إذاً ما دمت أبحث عن التميّز؟ أيُّ اختلاف أرجوه وأنا الآن في نظر العالم واحدة من آلاف النساء الخاضعات، أو ربما مجرد صوت تستفيد منه أحزاب الإسلام السياسي، في الوقت الذي أعرف في قرارة نفسي أنني عينٌ وُجدت لكي تُراقب وتنتقد وتثور... قد أظلّ أطرح على نفسي السؤال عينه: لماذا؟ وقد لا أجد الجواب، بل لن أجد الجواب. فالأرضية التي أقف عليها لا ينبت فيها سوى الأسئلة. وقد

يكون مُحقّاً من يقول إننا لن نتمكّن من فهم أيّ شيء ما دمنا نطرح الأسئلة!

وأنا بحثت طويلاً في كلّ شيء حولي علّني أجد، ولو بالصدفة، جواباً يشفي غليلي. رأيت أنّ عامة المؤمنين مشوا في طريق أدخل الطمأنينة إلى قلوبهم وأنقذهم من ضغط أسئلتهم المُلحّة، مُكتفين بما تُجيبهم عنه الكتب السماوية. والملحدون أيضاً اختاروا درباً آخر خلّصهم من عبء البحث والخوف من الموت وما بعده. أنا فعلاً أحسد كلّ شخص غيري. كلّ من ليس أنا. كلّ من لا يشعر بأنّه غريب أينما حلّ. وكم من مرّة هزّني سؤال مارميلادوف لراسكولينكوف في "الجريمة والعقاب": "هل تدري ما معنى ألاّ يجد الإنسان سبيلاً يسلكه؟" نعم، أنا أعي فعلاً صعوبة هذا السؤال دون غيره. لكنّ إحساسي هذا لا يعني أبداً أنني ضائعة بين طريقيْ الإيمان والإلحاد، ولا حتى الدين أو اللادين. فأنا لا أنكر إيماني. بل أفتخر بأنني كائن مؤمن بالفطرة، وأنّني أُمارس حياتي كصلاة. هذه الصلاة التي يظنّ كثيرون أنني أواظب عليها جُبناً وخوفاً، إنما تمدّني بقوة خيالية وتجعلني أرتقي روحياً وأمتلئ معنوياً. وهذا السحر الذي يجذبني نحوها هو أكثر ما أحبّه فيها. هي إحدى أجمل عاداتي، ومنها تعلّمت معنى الخشوع. فبتّ أرسم بخشوع المصلّين، وأتأمّل العالم بخشوعهم أيضاً. في كلّ مرّة أرى فيها البحر أو أرفع فيها عينيّ نحو السماء لأقول كلمة "يا الله"، أحسّ بعظمة الإيمان، وباليتم الذي يعيشه الإنسان بعيداً عن ربّه. لكنّ الإيمان وحده لم يروِ ولن يروي قلقي الظمآن إلى جواب.

هذا القلق الذي أحاول أن أسكّن أنينه في كلّ لوحة أرسمها.

* * *

أعيش الآن في المرحلة الذروة من حياتي. هي اللحظات التي تُباعد بين ما أنا عليه الآن وما سأكونه بعد وقت قليل. هي المسافة الفاصلة بين القلب والجسد، بين التخفّي والظهور، بين الروح والفِراش.

ها أنا أنتظره في المكان الأحبّ إلى قلبي. المكان الذي أنعزل فيه عن العالم لأعيش فيه مع ذاتي. وكما جرت العادة، أنا من يُحدّد غالباً أمكنة اللقاء. المكان يجب أن يكون دائماً امتداداً لمزاجي. فأنا لست ممّن يتغاضى عن هويّة المكان مكتفياً بهويّة الشخص الذي يُشاركه جلسته. فالمكان بحدّ ذاته كيان، أو بالأحرى شخص، إما أنْ أتآلف معه أو لا "أين سنلتقي اليوم؟"

ضربات قلبي وصلت إلى حدّها الأقصى عندما سألني هذا السؤال بابتسامة غاوية، بُعيد خروجنا من المحكمة. مع هذا، لم أفكر في الجواب. "في المحترف"، همستُ في أذنه وكأنني كنت قد هيأت نفسي لهذا السؤال. لكنّ علامات الاستغراب ارتسمت على وجهه وكأنّ جوابي لم يكن متوقعاً. مع هذا، لم يُناقشني... بل اكتفى بابتسامة خفيفة لم أفهم معناها.

لم يأتِ اختياري للمحترف عبثاً. وإنما أردت لهذا الركن الحميم أن يشهد على لقائي الأول برجل حياتي. أردت لهذا المكان الذي يتحوّل فيه الحلم إلى حقيقة، أن تتحوّل فيه الحقيقة إلى حلم. في هذه الغرفة الصغيرة التي أقصدها لأفتّش فيها عن نفسي بين أبطالي المُتخيلّين، سأكتشف أنوثتي مع بطلي الواقعي.

المكان لم يكن وحده مُقرّراً، بل الثوب أيضاً. الفستان الأحمر القصير جعلني أعيش صدمتي أمام المرآة، وبه أيضاً أريد أن أصدمه، أو الأصحّ أن أدهشه. والدهشة هي التي أحتاج حضورها في لوحتي المُقبلة "إيغو .

ضربات قلبي تتسارع. لا أدري إن كان خجلا من ارتداء فستان مثير لم أعتد أن أرتديه أمام أحد، أم خوفاً من عدم إنجاز اللوحة قبل المعرض الذي لم يتبقّ له سوى خمسة أيام. تسريحة الشعر لم أفكّر بها.

فأنا حسمتُ أمري بأن أسدل شعري الناعم على كتفيّ. لا أريد أن أبدو متكلّفة. شيء واحد لم أقرّره بعد. كيف أستقبله؟ أفكّر في أن أرتدي عباءة خفيفة فوق الفستان ومنديلاً حريرياً تنزلق من تحته بعض الخصلات، بغية أن أزيد من توتّره بالإنكشاف التدريجي أمامه، تاركةً له مهمة أن ينزع حجابي وعباءتي حتى أتجلّى له كامرأة أخرى كانت تختبئ تحتهما. وكم أحببت أن يُعرّيني بيديه مثلما أعرّي أنا الجسد الذي أرسمه بيديّ...

لا، سأفتح له الباب بالفستان الأحمر لكي أظهر أمامه كمفاجأة تجعله ضائعاً أمامي... أفكّر في الإحتمال الأوّل، أجده مثيراً لكونه يولّد لديه إحساساً بأنّه يُعرّي امرأته، إمرأة تخصّه وحده. والإحتمال الثاني فنّي، لأنّ حجم الدهشة فيه أكبر، وهذا ما أبحث عنه أولاً في تنفيذ لوحتي.

أحسّ بتأوّهات داخلي. معدتي تتقلّص وتتمدّد بحركة تتناغم وخفقان قلبي. أجلس بالفستان الأحمر الصغير على الكرسي الدائري الذي يُقابل لوحاتي. أشعر بنسائم باردة تهبّ داخل بدني. أرتعش، فتنتصب شعيرات جسدي. البرد يجتاحني في عزّ شهر آب، مع أنّني لم أشغّل المكيّف. هل اعتاد جسدي الإختباء داخل ملابسه أم أنّه برد جرّاء الخوف والتوتر؟...

لا، يجب الفصل بينهما. إنه الخوف وليس التوتّر. وأنا أعرف كيف أفرّق ببساطة شديدة بين شعورين متشابهين إلى هذا الحدّ. ففي لحظات

الخوف أبرد، وعند التوتّر أتعرّق، وتنتابني لحظات من الحرّ الشديد. الآن أحسّ أنّ حرارة جسدي هي دون الصفر، كأنني أقف عارية وسط عاصفة ثلجية. أضع الشال حول رقبتي وأحضن الوسادة وأشدّها نحو بطني. أتجمّع على نفسي حتى يأخذ جسدي وضعية الجنين. من أين أتيت بهذا الوصف؟ نعم، هذه هي الوضعية التي تتكرّر كلازمة في لوحاتي. لم أفكّر قبل هذه اللحظة بهذه التسمية "وضعية الجنين"، ولم أكن أعرف السبب الذي يجعلني أميل دائماً لهذه الوضعية بالذات. أرتاح برسمها، وأحياناً أشعر بأنني أرسم نفسي عبرها. إنها تسمح لي أن أكشف عن داخل المرأة من غير أن أضطر إلى كشف الجزء الأكبر من جسدها. أعتقد الآن، وبمصادفة عجيبة، أنني وجدت تفسيراً آخر لهذا الأمر. ربما أنا أبحث في لوحاتي عن وضعية الجنين الأولى التي يفقدها الإنسان منذ ولادته. وفي العودة إليها تكون العودة إلى زمن البراءة الأولى الذي أحاول استعادته في كلّ لوحة، وفي كلّ لحظة من لحظات حياتي.

أغرق في أفكاري وأنسى رعشة البرد التي تملّكتني قبل دقائق. أدير وجهي لا إرادياً نحو السرير الصغير. أفكّر إن كنّا سنملأ فراغه بعد قليل. هذا السرير البارد بملاءاته البيضاء لم يُغرني يوماً لأن أستلقي فوقه، بل كنت أفضّل أن أرتاح على الكنبة الصغيرة، أو الكرسي الدائري الذي يُقرّبني مني، من جسدي. تُرى هل سيلتقي جسدانا عليه؟ وهل سيغدو دافئاً بنا؟ مم أنا خائفة؟ الفتيات في عمري بتنَ خبيرات بمثل هذه المسائل، وأنا مازلت أرتجف كلّما تخيلت وجهه يقترب من وجهي.

أريد أن أخرج نفسي من دوامة الخوف هذه. الإنتظار يزيد خوفي، ورغبتي أيضاً. عجيب هو الإنتظار كيف يتلاعب بأحاسيسي ويزيدها قوّة وحدّة.

أين المرآة؟ عليّ أن أرى نفسي من جديد. آه... لا مرايا في هذا المكان! يجب عليّ أن أعرف كم من الوقت بقي لكي يأتي. أنظر إلى الحائط، لا ساعة فيه. كيف نسيت أنّ المحترف ليس فيه ساعة ولا مرآة ولا هاتف ولا أيّة وسيلة يُمكن أن تُعيدني إلى الواقع. لا شيء هنا سوى صوت الموسيقى ورائحة الألوان... وأنا.

* * *

"هذه ليلتي وحلم حياتي. بين ماضٍ من الزمان وآتٍ. الهوى أنتَ كلّه والأماني. فاملأ الكأسَ بالغرام وهاتِ...

صوت أم كلثوم يصدح من الراديو الذي أدرته كي يُخفّف عنّي وطأة الإنتظار. فالموسيقى هي دوماً سلواي ومُلهمتي. إنّها العاشرة مساءً. ما هي إلاّ لحظات ويأتي. ولكن هل يُعقل أن تكون هذه الأغنية قد مرّت بالمصادفة في الإذاعة، أم أنّها مُرسلة إليّ؟ كثيراً ما سمعتها، لكنني للمرّة الأولى أحسّ بكلماتها إلى هذا الحدّ. وكأنّ الأغنية كُتبت قبل عقود لهذه اللحظة بالذات. لي أنا. لكي أسمعها في "ليلتي هذه. كآبة خفيفة تعتريني. كآبة اعتدت أن تأخذني حتى في أجمل أوقاتي وأسعدها.

أقترب من النافذة، وأنظر إلى السماء. إنها ليلة مقمرة، وأنا عادة أتفاءل في الليالي المُقمرة.

وبينما أنا أتأمّل نور القمر وهو يُكسّر ظلام الليل، أسمع طرقاً على الباب. أنتفض من مكاني، فأحسّ بأنّ ساقيّ شُلّتا. لا أعرف ماذا أفعل. أروح وأجيء في مكاني. أُطفئ الراديو. أتجمّد في مكاني. أُكمّم فمي بيديّ خوفاً، أتنفّس بملء رئتيّ.

أتذكّر وجه تلك المرأة التي لولاها لما كنت لأعيش هذه اللحظات الآن. لا أستطيع أن أقول إنّها حبيبته، ولا حتى صديقته. إنها مجرّد امرأة

سابقة في حياته. واليوم سوف أجعله ينسى أيّ ذكرى تربطه بها. يا إلهي! جعلتُه ينتظر طويلاً. إنّه يطرق الباب مجدداً. أخفض رأسي وأمشّد شعري من الداخل، ومن ثمّ أرفعه فينسدل ناعماً فوق كتفيّ. ما زلت خائفة ومُرتبكة كأنني أنتظر رجلاً هو ليس زوجاً، بل عشيق ألتقيه سرّاً.

أمشي نحو الباب وأنا أسمع طرقات قوية لا أدري إن كانت هي ضربات قلبي أم طقطقة السكربينة العالية الكعب. أتذكّر أنني لم أضع العطر الذي يُحبّه. هذا العطر الذي أصبح جزءاً من جسدي، ومن روحي. قضيت سنوات وأنا أفتّش عن عطر يُشبهني، يُشعرني بأنني أنا. لم أكن مقتنعة بالعطور التي كنت أضعها، والتي كنت لا أضعها. وفي مرّات غير قليلة كنت أكتفي برائحة الصابون الذي أغسل به جسدي أو ببعض الكريمات التي أرطّب بها بشرتي بعد الإستحمام. ولكن منذ أن عثرت على عطري، الذي صار يُسمّيه المقربون مني باسمي، شعرت بأنني عثرت على هويتي الضائعة، ولم أعد أتخلّى عنه البتّة.

أصحابي يعرفون أنني موجودة في هذا المكان أو ذاك من رائحة العطر الذي أضعه. أمّا العطور الأخرى التي تُهدى إليّ في مناسبات معينة، فأقدمها بدوري هدايا إلى أمي أو شقيقتيّ أو إحدى صديقاتي، حتى قبل أن أشمّ رائحتها. في الروائح والعطور لا مجال للمغامرة. وأنا أصلاً لا أهدي احداً قارورة عطر، لأنّ العطر هو إكسير الجسد وبصمته. وعلى من يختار عطره أن يكون عارفاً برائحة جسده الطبيعية حتى يرى إن كان يليق به أم لا! ومن أجل هذا يُمكن أن يبدو العطر جميلا على جسد امرأة، وأن يكون هو نفسه مُقززاً على جسد أخرى.

هكذا، عندما شممت عطري قبل خمس سنوات كان بمثابة اكتشاف كبير لي. وقعت في عشقه، وأحببت الغموض الذي فيه قبل أن أعرف أنّه العطر الأول الذي يصنعه صاحبه للمرأة والرجل في آن... ومن عساه يكون امرأة ورجلاً عداي أنا؟ عدا كلّ فنان يُتقن فنّ العيش بروحين وجنسين، وأحياناً بجسدين؟

* * *

أقترب من الباب. لا ينبغي أن ينتظر أكثر. ولا يهمّ إن لم أتعطّر. بل أفضّل ألاّ يشمّ الآن سوى رائحتي أنا. رائحة جسدي، وجلدي. يجب أن يراني مختلفة في كلّ شيء. عليه أن يكتشفني، يكتشف حقيقتي وسرّي. أن يتعرّف إليّ شكلاً ورائحة ولوناً. سوف أُدهشه، وعلى هذه الدهشة أن تعيش معه ما دام حيّاً.

أضع يدي المرتجفة على مسكة الباب، وأفتحه. أراه أمامي يحمل باقة من الورود الحمراء بيديه. نظري يتجّه فجأة نحو الباقة التي تحتضنها أصابعه الجميلة بحنان.

أتذكر أنّ الإنفعال الأول هو ما يجب مراقبته الآن. عيناه مصعوقتان ومفتوحتان على وسعهما كأنّه رأى امرأة غيري. لا أدري إن كان يُحدّق في وجهي أم في جسدي أم فيّ كلّي. نظراته ثابتة في مكان ما، لكنني غير قادرة على تحديده. الموقف يُخجلني ويزيد من اضطرابي. أبتسم له. أمدّ يدي بحركة أدعوه فيها للدخول، ومن ثمّ أغلق الباب بهدوء. هو مازال واقفاً، وأنا مستغرقة في تأمّل تلك الدهشة التي تتلبسّه. أنتظر أن يقوم بحركة ما، أن ينطق بكلمة، أو على الأقلّ أن يظهر شيء من الرضا على وجهه. ولكن، لا شيء البتّة. لا بدّ من أن أفعل شيئاً ما. أودّ لو أنني أنسى خوفي وأُنسيه صدمته بقبلة نذوب فيها معاً.

لا يـتكلّم. ولا أنـا أيضـاً. أحـاول أن أقـول شـيئاً لكـنّ صـوتي يخونني.

صمتنا يُعمّق صمت المحترف وهدوءه. أدنو منه لعلّني أشجعه على القول، أو ربما الفعل.

أحسّ بأنفاسه تحرق وجهي. ينظر إليّ من غير أن أتمكّن من تفسير ملامحه الغريبة. خوفٌ بوجه جديد يعتريني. أحاول أن أخبّئ خوفي، أو لعلّه خجلي، فأفتح ذراعيّ وأحضنه بشدّة. أحضنه وأحسّ به يشدّني نحوه، يداه تُحيطان خصري، وببطء شديد يرفعهما عالياً ليتحسّس شعري. يوغل أصابعه الرقيقة فيه، يلتقط خصلات منه، يفركها براحه يده، يشمها، ويُعفّر وجهه بها. يرفع شعري ويتفرّس في وجهي من غير أن ينطق بكلمة واحدة.

أحضنه مرة أخرى، فنلتصق جسداً بجسد، ونمعن في اكتشاف جسدينا بعيون مُغمضة. هذا هو الجسد الأول الذي ألتصق به منذ أن فُطمت عن جسد أمي، أعني عن صدرها. لحظات تمرّ أشعر فيها بأنّ الزمن توقف فجأة مُخلّياً المكان للأبدية. مشاعر كثيرة تُخالجني من غير أن أعرف إن كنت ألتقط كلّ واحد منها. أمّا هو، فلا أدري أيّ مشاعر تجتاحه الآن. أجرّه من يده وأدعوه لأن يجلس على الكرسي الدائري، وأنا أجلس على الكرسي المقابل له.

أبتسم لأداري خوفي من ذاك السكون المُطبق علينا. فالعالم الجديد الذي ينكشف أمام كلينا أخرسنا. الكلمات أصلاً لم تعد تفعل بنا شيئاً، فالنظرات قالت ما لم تقله الشفاه. كأنّ الوقت حان لكي نترك الكلام لجسدينا.

أتجّه صوب النافذة، أُطفئ النور وأرفع الستار حتى يُضيء القمر غرفتنا شبه المُظلمة. أُشغّل الموسيقى وأدنو منه مجدداً. يُمرّر أصابعه

بعذوبة على وجهي، ومن ثمّ على كتفيّ ويديّ وعطفات جسدي. أتساءل إن كان يبحث عني فعلاً أم أنّه يكتشفني من جديد. وبحركة لا إرادية أمسكه من يده. لقد عشتُ حياتي وأنا على الحياد من جسدي، لكنني الآن سوف أجعل منه بطلاً. جسدي الصامت يعيش لحظات انفجاره. رغبة قوية في الرقص تعتريني لأول مرّة في حياتي. أمسك بيده وأدعوه لأن يرقص معي. الموسيقى تتسلّل إليّ، فتفعل بي ما تفعله الخمرة برؤوس شاربيها. تُحدث فيّ أثراً عجيباً، لا أستطيع وصفه.

هي تُضاعف إحساسي بحركة جسدي، وكأنّها تريد أن تقتلع مني شيئاً طالما خبأته داخلي. لست خبيرة في الخطوات وإنما أحرّك جسدي بإحساسي. أعانقه بينما يداه تُحيطان خصري.

هو يتأملني باستغراب كأنه مأخوذ بي. كلمة "أحبّك" تسيل من فمي من دون أن أتقصّدها. يبدو أنّ لكلّ وجه من وجوهي شخصيته. فأنا اليوم أكثر جرأة وأكثر ثقة بنفسي.

لا أصدّق أنني أرقص معه، في مكان لا أحد فيه سوانا. أرقص، وأشعر بأنني خفيفة مثل سحابة عابرة. لها الحقّ صديقتي بقولها إنّ الرقص هو تحليق وطيران. أتذكّر كلماتها التي لم أكن أفهمها "من لا يعرف الرقص تثقل عليه حياته" كم كانت مُحقّة. هي المرّة الأولى أجرّب فيها أن أرقص مع أحد، أو حتى أمام أحد، وربما أمام نفسي.

ندور معاً في عتمة الغرفة فنتداخل كما لو أننا جسد واحد. ها هي عزلتي تتفكّك، واضطرابي يتقلّص شيئاً فشيئاً. الآن فقط بدأت أستمتع بضياعه أمامي، وبسلطة جسدي عليه.

أسأله عن سبب صمته، فيُجيبني أنّه مدهوش أمام هذا الإنقلاب. أظنّه أراد أن يقول لي ما قاله بروتون في إحدى قصائده "أنت جميلة مثل كارثة"، لكنّه لا يفقه القول.

حبيبات العرق تتلألأ في الضوء الخافت وتُضيء جبهته الجميلة. أمسح بيدي جبهته، فتتبلّل أصابعي بماء توتره. يُمسك بأطراف أصابعه الرقيقة يديّ الرطبتين ويمسح بهما وجهه، ومن ثمّ يُقبلني بجوع عتيق. ما كنت أعلم أنّ القُبلة الأولى لها أثر عجيب كما في الأحلام. أنا في أشدّ اللحظات انفعالاً اتصال جسدينا يُشعرني بأنّ تياراً كهربائياً مسّني، وسرعان ما أدخلني في غيبوبة. أظنني أكتشف لتوّي سرّ الحياة وسحرها الخاص. أيُّ شعور مجنون يُخلّفه فينا هذا الحبّ؟ اللذّة التي حرمت منها نفسي لسنوات، بدافع العفّة أو الزهد أو التبتّل أو أيّ مرادف آخر من هذا القبيل، أعيشها الآن بقوة. الكلمات تتجمّد بين شفتيّ. أحدّق في عينيه، فأجده يرشقني بنظرات ساهمة. أغمض عينيّ وألتصق به كأنني أبحث في داخله عن مُتع الحياة ومفاتنها، عن سرّ الوجود ومعناه. يحضنني، فأتلاشى بين يديه كنسمة.

لا أدري إن كان مصدوماً أمام انقلاب حبيبته من فتاة متمنعّة خجولة إلى امرأة مُفعمة بالجرأة والرغبة. ليس بإمكاني السيطرة على نفسي، ولا الصمود أمامه. أظنّ أنّ الثياب هي فعلاً حشمة، فما إن تحرّرتُ من ملابسي حتى تحرّرت من كلّ تحفّظ أو حياء. كأنّني استُبدلت بامراة أخرى غيري. إمرأة تنتقم من ذاتها، من خوفها وخجلها واحتشامها. أنا مندهشة من جرأة لم تكن يوماً سمة بارزة فيّ. أغويه كأنني أمضيت عمراً في ملاهي المولان روج. أتحرّك بحرية لافتة كأنّها ليست المرّة الأولى التي أُدخل رجلاً فِراشي. وهو صامتٌ، لا يقول شيئاً. فقط أسمع لهاثه، كأنّني أوّل امرأة يُقبّلها. يُقرّبني منه ويتلمسني ليستشعر قوّته، ليستوعب حقيقة أنّ المرأة المحجوبة عن عيون كلّ الرجال باتت ملكه، له وحده دون رجال العالم كلّه.

* * *

لا أعرف كم من الوقت مضى ونحن غارقان في هذه الرحلة المجنونة. يرتدي ملابسه ويقف عند الباب. يُعانقني. يضع يديه الدافئتين على وجنتيّ ويقول لي إنني جميلة جداً. ومن ثمّ يُقبلني قبلة الوداع ويُقفل الباب وراءه بهدوء.

اختليت به لأول مرّة في هذه الغرفة. ثلاث ساعات مرّت كأنّها حلم. على هذا السرير جلسنا وتمدّدنا مُتعانقين. لا أدري ماذا أصابني. شيء كالدوار الخفيف. لا أقدر أن أفعل شيئاً، مثتلاشية أستعيد ما حدث بيننا. آثار جسده مازالت موجودة على الملاءات البيضاء. رائحته أيضاً تملأ الغرفة وتملأني، حتى بتّ أعجز عن تمييز رائحة جسدي من رائحة جسده. أضمّ يديّ كأنني أحاول أن أحضنه. لا أصدّق أنّه كان معي هنا وأنني راقصته ووضعت رأسه في حجري وداعبت شعره بيديّ اللتين أشبعهما تقبيلاً. وكلّ ما حصل معي خلال هذين اليومين لا يُصدّق. حققت ما أريده، وها نحن تلامسنا وتعانقنا وتداخلت أنفاسنا كأننا روح واحدة. جسدي يرتجف كلّما استعدت مشهد اللقاء. ما حصل معي الليلة كان مُذهلاً، هي ساعات لن أنساها ما حييت. وعليّ الآن أن أبدأ عملي من أجل تخليدها. لا بدّ من أن أبعث إليه برسالة قبل أن ينام وأمضي في رحلة رسم اللوحة الأخيرة، لوحتي أنا.

"اليوم وُلدتُ بين يديك، ولن أتركك حتى أموت بين يديك. أحبّك، ومن الآن فصاعداً سوف أحبّك أكثر فأكثر... أحلاماً سعيدة"

أكتب الرسالة بالرغم من أنّني مُصابة بارتخاء حاد جعلني أجتهد في أن أضغط على أحرف هاتفي. أكتبها بينما عيناي تغمضان. لكنني أفتحهما بمجهود كبير.

أحسّ أنني مُنهكة، ولن أتمكن من أن أحمل الريشة في يدي. فما عشته اليوم لا يُصدّق. إنه ضرب جديد من ضروب جنوني. لم أعد قادرة

على الجلوس. أمدّ جسدي حيث كنا معاً، ألتقط الوسادة التي مرّغ رأسه عليها. أحضنها بقوة وأقرّر أن أنام، بعدما وضعتُ المنبّه على الساعة السابعة صباحاً. ستّ ساعات من النوم تكفيني لكي أستيقظ بنشاط. أمامي خمسة أيام أحبس نفسي خلالها في هذه الغرفة. هذا المشغل سيتحوّل إلى زنزانة لن أخرج منها قبل أن أنتهي من لوحتي. تلك اللوحة التي ستُكمل النقص في بقيّة لوحاتي.

أفتح جفنيّ المُغلقين رغماً عني. لا رسالة منه حتى الآن. قد يأخذ وقته في كتابتها، لكنني لن أنتظر. أقرأها في الغد لأنّ النوم غلبني. أرى وجهه بين زحمة صور في رأسي. أبتسم ومن غير أن أتمكّن من أن أطبق شفتيّ، أغرق في نوم عميق...

* * *

اليوم الأخير

خمسة أيّام مضت لا أفارق فيها المحترف، إلاّ في ما نَدَر. لا شيء يشغلني عن إنجاز اللوحة. كنت حريصة على أن أعيش خلال هذه الأيّام في ما يُشبه العزلة، لكنّني لم أقوَ على الإبتعاد عنه. اللقاء الأخير جعلني أتعلّق به بطريقة عنيفة. ولم أكن أعرف قبل ذاك اليوم أنّ العلاقة الحميمة تُبدّل معنى الحبّ، وتهزّه من جذوره. صرت أريده لا حباً به فحسب، وإنما رغبةً مني في التلذذ بأنوثتي، وجسدي. أظنني أدمنت إحساسي بالذوبان بين يديه. لم أتمكن من أن أمضي ليلة واحدة من غير الإتصال به لكي يأتي إليّ. لكنّه اعتذر ليلة البارحة عن المجيء. أزعجني الأمر كثيراً، إلاّ أنني آثرتُ الصمت. حاولت ألاّ أشغل نفسي بالأسباب. طلب منّي أن أركّز في عملي قائلاً إنّ الأيام الآتية كثيرة وأنّ لقاءاتنا لن تنتهي. استيقظت من نومي وبي شوق إليه. لكنني لم أتصل به. توجهت صوب النافذة، نظرت بصعوبة إلى السماء. أحسست أنّ شمس هذا النهار، على غير عادة، تُشرق لي أنا، بالذات... سألت نفسي عمّا أتوقعه من هذا اليوم. هل يعدني آخر النهار بمفاجأة ما؟ أم أنّه سيمرّ عادياً كما كلّ الأيام، من غير أن يُبقي لي سوى ذكرى التحضير لهذا اليوم؟ فأنا اعتدت ألاّ أحفظ من الذكريات إلاّ تفاصيلها، أو بالأحرى التفاصيل التي تُحيط بها. إنني مثلاً لا أحبّ الأعياد، إنما الأيام التي

تسبقها. وغالباً ما أراني متحمسة ومنهمكة، حتى إذا ما أقبل العيد غرقت في كآبة لا أفقه لها سبباً. أفكار كثيرة تتزاحم الآن في رأسي من غير أن أعيها، أو أعرف إن كانت أفكاراً أم تخيلات.

ساعات تفصلني عن افتتاح المعرض الذي يستمر شهراً في غاليري "أفكار أدور بين اللوحات الموزعة في المحترف قبل أن يأتي الباص لينقلها إلى صالة المعرض. أدقّق في اللوحات التي وضعتها جانباً.

أربع لوحات فقط فضّلتُ ألاّ ألحقها بالمعرض، لأنّ الأجساد الأنثوية فيها عارية تماماً. هكذا كان رأيه وهو من لفت انتباهي إلى المسألة هذه: "غياب هذه اللوحات لن يُنقص معرضك شيئاً. أمّا جهدك فلن يذهب سُدىً إن ضممتها إلى مجموعتك الخاصة، أو أهديتها إلى أيّ شخص مُقرّب" إنه محامٍ ناجح وليس مُستغرباً أن يقنعني. معه حقّ. المعرض في ذاته سيكون مفاجأة بالنسبة إلى مجتمع لم يعتد فكرة وجود رسّامة محجبة ومتخصصة في رسم الأجساد الأنثوية، فلا داعي للمزيد من المفاجآت، لأنّ وجود لوحات بهذه الجرأة قد يبدو مُفتعلاً، وربما مُستفزّاً، لا سيّما أنّه المعرض الأوّل لي. أمرُّ بين اللوحات الأخرى. أتلمسّها، وأتأملها. فيها وجوه مُفعمة بالقلق، وأخرى بالرقة. فيها أجساد شديدة الطفولية، وأخرى شديدة الإروسية. يسكن بعض لوحاتي أطفال يرقصون، وعمّال مكتئبون، وفتيات يرقصن... الإنسان وحده بطل لوحاتي. جسده، وجهه، عيناه، ابتسامته... لا أعرف لماذا أبتعد عن رسم لوحات لا يشغلها الإنسان، مع أنني أجيد كلّ أنواع الرسم.

أعدّ اللوحات. الآن اكتمل العدد بعدما ضممتُ لوحتي الأخيرة "إيغو إلى المجموعة. أنظر إليّ داخل هذه اللوحة، وأحاول أن أنظر إليّ وأنا أقف خارجها، فلا أدري أيّهما هي أنا أكثر. صامتة أقف مقابل اللوحة. أحدّق فيها حتى تعبت عيناي من كثرة التحديق.

رسمت جسدي "مُظللاً" بغية أن أغلّفه بشيء من الغموض الساحر. تقاسيم الوجه غير واضحة لكنها توحي بما يُشبه الهدوء، أو ربما الصمت الذي أحلم بالخروج منه. البطن هو أكثر ما يبرز في جسدي، جسدها. جعلته منتفخاً قليلاً، لكأنها، أو كأنني امرأة حُبلى. هي فعلاً حُبلى بأفكارها وقلقها وصمتها وشهواتها.

بطن المرأة الممسوح قد يُغري الرجل أكثر من البطن المنتفخ، ولكن في الرسم الأمر مختلف. عند رسم الجسد الأنثوي، أفضّل البطن بارزاً شيئاً ما، لأنّ بطن الأنثى هو أكثر ما يستأثر باهتمامي. إنّه مكان يختصر العالم كلّه، فكيف أجعله أملسَ خاوياً كأرض بور؟ أنا لا أرسم العري الأنثوي إبرازاً لجمالياته كما كان يُرسم من وجهة نظر رسامي عصر النهضة مثلاً، وإنما أرسمه جسراً أعبر من خلاله نحو جماليات الروح للتعبير عن سحر الحالة الداخلية نفسها.

خصلات الشعر مترامية في الهواء ولها ألوان كثيرة تتدرّج من الأحمر إلى البنيّ الفاتح. شعرها يطير بينما هي تحمل بيديها شالاً قرمزياً تضعه بملامبالاة فوق ثدييها. هي ليست متكوّرة على نفسها كما معظم نساء لوحاتي. إنها لا تأخذ وضعية الجنين، وإنما تقف على رأسيْ قدميها كأنها تستعدّ للتحليق، أو ربما للوقوع. ومن يراها لا يُدرك إن كانت ترتفع عن الأرض أم تلتصق بها. فلا يُمكن العين أن تُرجّح، أمام هذه الوضعية اللامحددة، احتمالاً على آخر. أهي في لحظة التجلّي أم التعثّر؟ الطيران أم الهبوط؟ الولادة أم الموت؟...

الصدمة التي قرأتها في عينيه المرّة الفائتة جعلتني أشعر بموجة من الأحاسيس الغامضة التي لم أجد لها تفسيراً أثناء الرسم. السكينة التي ظننت أنّها ستورق في لوحتي بعد لقائنا الأخير استحالت خوفاً، وقلقاً مُضاعفاً. الضوء الذي اعتقدته سيتجلّى في اتصال جسدينا أضحى

عتمة. والأجوبة التي انتظرتها تحوّلت أسئلة. الحقيقة تنعدم أحياناً في الأمور البديهية. كلّ تجربة جديدة أخوضها تُعلّمني أنّ لا حقيقة مؤكدة في الوجود، وإنما حقائق نفترض وجودها. وكلّ واحد منّا يُحاول أن يفرض حقيقته على الآخر. كم أنا سعيدة بهذه اللوحة، وكم أنا فخورة بها. كأنها أكملت نقصاً ما في مجموعتي. ولولا أنني طبعت الملصقات ووزّعت بطاقات الدعوة قبل أسابيع لكنت أهديت عنوانها إلى المعرض.

"إيغو"، عنوانٌ يليق بمعرض كلّ لوحاته فيها شيء مني، أعني أشياء مني. لا أدري أيّهما أفضل، أن يُسمّي الفنان معرضه بعنوان إحدى لوحاته أم أن يختار عنواناً آخر من وحي اللوحات كلّها. الأمر نفسه قد يواجهه الشاعر أيضاً، أيختار عنواناً لديوانه من إحدى عناوين قصائده أم أنّه يقترح عنواناً آخر يُقدّمه كقصيدة إضافية؟ لأوّل مرّة يُداهمني هذا السؤال. أعتقد أنّ الجواب كامنٌ في السؤال نفسه. أن تختار عنواناً جديداً للمعرض كأنّك تُضيف إليه لوحة أخرى.

نعم، لا شيء أفضل من "كائنات الظلّ" هذا هو العنوان الذي اخترته أولاً، وهذا هو أفضل عنوان لمعرضي الأوّل. اخترته قبل أن أقرّر إقامة المعرض، وقبل أن أرسم لوحات كثيرة منه. استوحيته من مشهد سوريالي أدهشني في المسبح النسائي الذي أرتاده صيفاً. فأنا انقطعت عن ارتياد المسابح المختلطة نهائياً في الخامسة عشرة من عمري. عندما دخلت للمرّة الأولى المسبح النسائي "باراديز بيتش"، أصابني الذهول وظللت أعيش تحت تأثير الصدمة مدّة أسبوع. كانت النساء متشابهات، يدخلن ملتحفات بطبقات من الملابس، وما إن يتجاوزن الباب الخارجي حتى يخلعن ما عليهن لتتجلّى من تحت العباءات والثياب الطويلة كائنات مختلفات بألوانهن وقاماتهن وطريقة مشيهن...

كائنات جميلة تملأ المكان وتحوّله إلى جنّة حقيقية تنعم بها حواء وحدها. جنة لا تطأها سوى أقدام النساء.

هناك فقط يشعرن أنّهن خرجن من الظلّ إلى النور. في ذاك المكان يشعرن بأنّهن تحررن من ملابسهن التي تُغطّي أبدانهن صيفَ شتاء. يركضن، يُقهقهن، يرقصن. العري يغدو هو الحياة.

منهنّ استوحيت عنوان المعرض وفكرته.

وفي آخر مرّة قصدت فيها المسبح، الصيف الماضي، صادفت مشهداً سكنني ولم أتخلّص منه إلاّ بالرسم. دخلتْ مجموعة من الفتيات المحجبات إلى المسبح، واخترن مكاناً إلى جانبي. وضعن المناشف على ال"شيز لونغ" وأغراضهن على الكرسي، وبدأن بخلع ملابسهن. كنت أنظر إليهن بفضول كبير. نعم! النساء أيضاً تملأهنّ الحشرية لمشاهدة الأجساد الأنثوية الأخرى لحظة انكشافها. في المسابح النسائية تخلع المرأة ثيابها أمام الجميع، ما دامت ترتدي لباس البحر تحتها، من غير أن تضطر لدخول الغرف المخصصة لتبديل الملابس. هناك تكون المرأة على حريتها لأنّ عيون الرجال ليست حاضرة حتى تتربص بها. لكنني كنت أنا من يُراقبهن.

رأيتهنّ يخلعن ملابسهن ببطء على وقع موج البحر الهائج، وكأنهن في عرض للرقص العاري. وكلّما خلعن طبقة عنهنّ، كان يتكشّف أمامي جسد آخر، أكثر جمالاً وإثارة. هذا المشهد ذكرني ب"نوم إيفيت"، أول عروض التعرّي في باريس والتي استعان بها فرويد في تحليله لنظرية الكبت. وبينما كنت أتأملهن، تأكدت من أنّ فكرة التعرّي هي أكثر إثارة من العري نفسه.

عندما كنّ متدثرات بملابسهن الطويلة الداكنة، لم يكن لهنّ عمر أو شكل. ولكن ما إن خلعن ملابسهن حتى أصبحن مُضيئات كنجمات

السينما. هؤلاء أردتهنّ بطلات لوحاتي. اخترت أن أرسم أجسادهن في لحظة تحوّلها، في هذه اللحظة بالذات. لحظة الإنكشاف، لحظة الخروج من الظلمة الى النور.

هؤلاء الفتيات سلبنني عقلي. وجدت فيهنّ الصورة المُضادة لحشرة كافكا. تحولهنّ أثار دهشتي. قبلهن، لم أنتبه إلى المعنى الحقيقي لهذه اللحظة مع أنني منهن، ومثلهن.

ظللتُ أراقبهن طوال ذاك اليوم. رأيتهنّ وهنّ يضعن الزيوت على أجسادهنّ، مستسلمات للشمس التي اشتاقت أبدانهن المختبئة إليها. وبعدما أخذت بشرتهن تتلون بسُمرتها الجميلة، هرعن يُصوّرن أنفسهن قبل المغيب حتى تبقى صورهن كحوريات وسط الماء والشمس والخضرة للذكرى، علّهنّ يعرضنها أمام أزواجهنّ للتعويض عن حلمهن في أن يجمعهن مكان واحد مع رجالهنّ. مكان تكون السماء فيه سقفهم والماء سريرهم والعري ملبسهم.

وهذا أيضاً كان حلمي. فأنا كلّما تحرّرت من ثقل ملابسي وتركت للهواء حريّة أن يعبث بشعري وللشمس أن تُلوّن جسدي تمنيت لو أنّه يكون معي حتى تكتمل فرحتي. ولكن هل من جزيرة نائية أقصدها علّني أحقق حلمي معه؟

أذكر أنني قلت له مرّة عبر الهاتف وأنا في البحر "أتمناك معي ولم أعرف أنّ هذه الجملة كانت لتترك كلّ هذا التأثير في نفسه. صوت خفيف خرج منه وكأنّ الريق قد جفّ في حلقه. حشرجة صوته لا أنساها. لم يتكلّم أبداً، بل صمت، وكأنّ أمنيتي تلك أثارته إلى حدّ لم يعد قادراً على النطق بكلمة. فهمت ذلك من صمته وأنفاسه المتسارعة التي حاول أن يقطعها.

أن تجتمع النساء المحتشمات في مكان واحد يتحرّرن فيه من ملابسهن هي فكرة مغرية لكلّ رجل، ولكلّ فنان أيضاً. الرجال في

المسابح المجاورة كانوا يخترقون حدود الشاطئ المخصّص لهم، عبر درّاجاتهم المائية حتى يقتربوا من شاطئ النساء ويستمتعون بمراقبة نساء المسبح "النسائي"، مع أنّ الجميلات يملأن المسابح المختلطة وشطوطها. إنّه الفضول الفطري والرغبة في الإكتشاف وكسر الممنوع. وهذا ما قد يكون أغراه فيّ.

"كائنات الظلّ" عنوان يختصر جوّ اللوحات ويمنحها بُعداً آخر. هؤلاء النسوة لم يُلهمني عنوان معرضي فحسب، بل وأكبر لوحاته... هي معلّقة هناك، تضّج بالإناث، لكنّ لحظة التحوّل هي بطلة اللوحة. نساؤها متشابهات. أجسادهنّ تلفّها ملابس فضفاضة، ورؤوسهنّ تُغطّيها المناديل. يتجّهن جميعهن نحو مستنقعات من الماء، وكلّ واحدة مشغولة بحركة معينة. واحدة منهنّ تفكّ أزرار قميصها، وأخرى تضع يدها على منديلها، والثالثة تنخفض كأنها تخلع تنورتها. لا شيء يبدو من أجسادهن لأنّني أردت رصد اللحظة نفسها، على أن أترك للآخرين تخيّل ما بعد اللحظة. لم أجد لها عنواناً يمنحها بعدها المنشود. خفت أن أحدّ جموح خيال من يراها بعنوان إيضاحي، فأسميتها "بلا عنوان"

أتمشى وسط لوحاتي كأنني في مدينة صاخبة. وفجأة، يُباغتني صوت عجلات الميكروباص. علينا نقل اللوحات الآن، علماً أنّه كان من المفترض أن أنقل لوحاتي إلى الغاليري قبل أيّام.

أسرع خطواتي نحو النافذة، أفتحها، فأحسّ بضربات قوية في صدري. إنهم أتوا لكي يأخذوا اللوحات منّي. المحترف سوف يفتقدها حتماً، وعيناي أيضاً.

* * *

باب المحترف مفتوح، يدخلون ويخرجون فيتناقص عدد اللوحات التي عشت معها أيّاماً وليالي كثيرة. أجلس وحدي على الكرسي الدائري، أراقبهم وأترك لوالدي مهمة مساعدتهم. كأنني استنزفت كلّ طاقتي حتى ما عدتُ أقوى على النهوض عن الكرسي. يحملون اللوحات وينقلونها من مكانها، فأحسّ كأنما يُنزع قلبي من صدري. ها هي لوحة "طريق تخرج أيضاً ليغدو المحترف خالياً تماماً، إلاّ منّي.

اللوحات التي رسمتها بكلّ ما أوتيت من حبّ وغضب وإحساس لم تعد في مكانها. هذه الأعمال التي كلّفتني ساعات طويلة من حياتي سيغدو لها ثمن. ومقابله يأخذها من يريدها. لن تكون لي بعد الآن. سوف يحصل عليها أشخاص لا أعرفهم، ولا يعرفونني ربما. ستُعلّق على جدران غريبة. تلتهمها عيون أخرى وتُصادفها وجوه غير وجهي.

اللوحات أيضاً اعتادتني كما اعتدتها. ولا أدري إن كان مقتنوها سيُحسنون تقديرها. لا أظنّ أحداً سيُحبّها كما أحببتها أنا. من عساه يُقدّر مثلي لوحات زهدت بنومي وراحتي وطعامي لأجلها. أشعر بإحساس والد يُقدّم ابنته بيده لرجل آخر بعدما أفنى عمره لأجلها، لا لشيء سوى أنّ هذا هو قدرها. وقدر اللوحة ألاّ تبقى على حائط راسمها. أنظر حولي فلا أجد سوى الفراغ. فراغ قاتل. المحترف بات كئيباً، فارغاً من لوحاته التي ذهبت وأخذت معها دفءها وضجيجها. كم كنت أستأنس لوجودها معي، وكم كنت أستمتع في رسمها. أجزم أنني لم أعرف حجم متعتي تلك قبل هذه اللحظة. أفتقد لوحاتي وأفتقد أجساد نسائها اللاتي علّمنني ألاّ أبحث عن الحقائق في الكتب القيّمة والتجارب الهائلة، لأنّ الحقيقة أبسط بكثير ممّا نعتقد. إنها تكمن في تفاصيل الأشياء كما في نواتها. في جسد طفل، في ابتسامة رجل، في بطن امرأة، ربما...

اللوحات التي غابت ستحلّ مكانها لوحات أخرى وسوف يكون اسمي موجوداً في كلّ منزل، وعلى كلّ جدار!... آه، نعم. هذه هي أنا، أجرح قلبي ومن ثمّ أعزّيه حتى تختلط سعادته بتعاسته، فينقبض في لحظات الفرح، وينشرح في أقسى لحظات الأسى. أدير وجهي إلى الناحية الأخرى. أركزّ بصري على مواد الرسم التي تبقّت لي. أغمض عينيّ وأتنفّس عميقاً حتى تمتلئ رئتاي برائحة المعجون والألوان وأعد نفسي بلوحات أخرى أستكمل فيها بحثي عن... عن حقيقة، عن ذات، وربما عن اللاشيء. أقفل باب المحترف وأصعد إلى غرفتي حتى أحضّر نفسي لنهار طويل لا أعرف ماذا يُخبّئ لي في نهايته.

* * *

أقف أمام المرآة. الآن أصبحت جاهزة. ارتديت قميصاً من الحرير الأبيض اللؤلؤي وسروالاً ذهبياً مضيئاً. اخترت ألواناً ساطعة حتى أبدو متألقة في يوم لا يقلّ أهمية عن يوم زفافي. وضعت مكياجاً خفيفاً بألوان ترابية وبرونزية وانتعلت حذاءً صيفياً بكعب عالٍ. لم يبقَ لي سوى أن أضع المنديل على رأسي، وأخرج. أنظر إلى المرآة فتروقني ألوان شعري وبشرتي المتناغمة وألوان ملابسي ومكياجي. تتكدّر أحوالي فجأة. هكذا أنا، كلّما وجدت نفسي أجمل تكفهرّ روحي أكثر، على عكس النساء الأخريات، لأنّ عليّ أن أحجب جمالي بنفسي. النسوة يُنفقن "الملايين" من أجل جمالهن، وأنا بحركة واحدة أهدم جمالي بيديّ. لماذا؟ لا أدري. بل إنني أكذب على نفسي.

أنا أعرف ما لا يُمكن أحداً أن يفهمه، ولو كان هذا الأحد فرويد نفسه. أنا أحبّ نفسي في كلتا الشخصيتين. ربما تعودت على ذلك الجوّ المسرحي الذي أعيشه، حتى صرت أدمنه.

امرأتان تتقاسمانني. عندما أملّ إحداهما، أقتلها وأتمسّك بالأخرى. طاقة العنف التي في داخلي أجد لها منفذاً. أسيّلها عبر قتل يومي لواحدة من "المرأتين"

الدوران المختلفان جعلاني أعيش في عالم درامي أضحت فيه نفسي أشدّ اتقاداً وشفافية. هذه الحياة التي كُتبت لي- برغم أنني اخترتها- ألهبت عواطفي وزادتها جموحاً. ولولا هذا الإتقاد النفسي الذي خلّفته "قطعة القماش" تلك في حياتي، لما انتبهت إلى ذاتي.

الحجاب ربما يجعلني غير مرئية في عيون الآخرين، لكنّه صوّب نظري إليّ وجعلني أُبصر نفسي بصفاء أكبر. بالصدفة انتبهت إلى أنّني أشبه شخصيات رامبراندت التي لا تظهر تحت الضوء في لوحاته الفنية إلاّ حين تفيض عواطفها وتزيد حدّة.

أواجه المرآة مرّة جديدة. عيناي تغازلان صورتي، بلا حجاب. إنني فعلاً امرأة غير تلك التي يعرفها الناس. ماذا لو أذهب اليوم هكذا؟ كيف سيكون ردّ فعلهم؟ أيّ حيرة سأحدث فيهم؟

أُحمل المنديل بيدي، أقرّبه مني، أتحسسه بكفيّ كأنني أفكّر. لا، لن أخلعه اليوم. حضوري من دونه سيكون وقعه كالصاعقة. لن أسرق الإهتمام من لوحاتي. أريدها هي أن تكون محطّ اهتمام الحاضرين، ليس أنا. وبحركة لا إرادية أضع الحجاب على رأسي، فتنزلق بعضٌ من الخصلات الأمامية من تحت المنديل الشامباني. أنظر إليّ مجدداً. أحال هذه الخصلات القليلة أضاءت وجهي. هذه الحركة البسيطة بدلّت معالم وجهي وجعلته مُشعاً، فلماذا لا أعتمدها اليوم؟ إنّ الحجاب حين يُطوّق الوجه كلّه يسرق منه سحره ووهجه، أمّا حين يكون رخواً ولا يُخفي شعر المرأة كاملاً وترسيمة وجهها، فإنّه يغدو مُكملاً للجمال، وقد يمنح وجهها المزيد من الرقّة والغموض. وفي يوم من الأيام، كان هذا النوع من الحجاب

موضة سائدة تتبعها الجميلات ونجمات السينما في العالم. ولطالما أسرتني صورة غريس كيلي وهي تضع ذاك الحجاب النصفي الذي كان يُضفي على حُسن وجهها براءة وسحراً. الحجاب المتحرّر من الدبوس والقماط جعلني أشعر بأنّ جسدي متحرّر من أقفاله، وروحي من تعقيداتها. أترك المنديل رخواً فوق رأسي، فتنسدل من تحته غرّة أرفعها مرّة وأتركها أخرى حتى أقرّر ماذا يليق بي أكثر. لكنني أختار في النهاية أن أرفعها قليلاً لئلا تُغطّي عيني.

أحدّق في نفسي ومن ثمّ أقبّل وجهي في المرآة، وأبتسم... لأوّل مرّة أحسّ أنّ الوشاح لا يطمس جمالي، بل يُكمّل أناقتي، وأنوثتي أيضاً. أشعر برضا تام عن نفسي. أغمز صورتي المنعكسة في المرآة كدليل على الوفاق بيني وبين ما أبدو عليه. ولا أعرف من أين أتيت بهذه القناعة التي لم تكن مرّة سمة شخصيتي.

أترك الغرفة بفرح لا يُشبه الفرح، وأغلق بابها بهدوء.

* * *

في المعرض

أدخل الغاليري بخطوات رشيقة كما لو أنني أطير. أمشي بحريّة لم أشعر بها من قبل. كأنّ جرأتي في اللعب بالحجاب هي تجرؤ على اللعب بالتقاليد الصارمة. الخوف الذي طالما عانيته إزاء القضايا الكبرى يتبدّد فجأة، وقوة خارقة تحلّ مكانه. لا شيء يُخيفني، لا شيء يُعيقني.

شخصيتي المغامِرة وحدها الحاضرة. لديّ رغبة في أن أجرّب ما لم أجرّبه يوماً. هي المرّة الأولى التي أحس فيها بمثل هذه الراحة والثقة بنفسي. راضية عن هيئتي التي تزاوج بين الموضة والإلتزام، وعن معرضي الذي أتى في موعده. وأكثر ما أتمنّاه أن أختم يومي هذا بين أحضان الرجل الذي أحبّ. فماذا ينقصني بعد؟

أتلفّت حولي، فتأخذني الدهشة وأنا أتأمّل اللوحات موّزعة على جدران الصالة.

نظراتي زائغة لكأنّها أخطأت الرؤية. هي ليست لوحاتي، فماذا يفعل اسمي في أسفلها؟ أنظر إليها كأنّني لم أرسمها ولم أسكن معها شهوراً وسنوات. أحسّ أنّ شخصاً آخر غيري أنجزها. لوحات لا تنتمي إليّ ولا أنتمي إليها، مع أنني متيقنة من أنّ الغريب الذي رسمها هو أنا. ولا أحد غيري أنا. أتأمّلها وكأنني أكتشفها، أو أنني أعيد اكتشافها. اللوحات في

المعرض تختلف عمّا تكونه في المحترف. للأجساد أشكال أخرى وللألوان معانٍ مختلفة.

النساء في اللوحات هنّ أكثر جرأة، برغم أنهن منطويات على أنفسهن وغارقات في أفكارهنّ، وكأنهنّ يبحثن عن أنفسهن. أجسادهنّ المكشوفة أمام الملأ تجعلهن أقلّ حياءً مما كنّ عليه في محترفي الصغير. أدنو من لوحة "ألم" باستغراب من يراها لأوّل مرّة في حياته. المرأة فيها ممدّدة على شكل حرف S باللاتينية، رأسها إلى الوراء وساقها مرفوعة قليلاً. جسدها مثل صفحة بيضاء، لا يبين منه شيء. تتمدد مغمضةً عينيها، تضع وسادة تحت اليد الأولى وتُمسك باليد الأخرى أعلى جبينها. وجهها شاحب وعقدة صغيرة تعلو عينيها المُغمضتين فتقطب حاجبيها الجميلين مثل سيفين عربيين.

حركة بسيطة تتراءى فوق شفتيها المُغلقتين لكأنهما تهتزّان اهتزازاً لامرئياً. إنّه وجه امرأة موجوعة. أردت لهذا الوجه أن يُعبّر عن ألم صامت، عن وجع امرأة وحيدة. إلاّ أنني أكتشف لها الآن معنىً آخر لم أقصده البتة أثناء رسم اللوحة. إنّه ألم الرغبة أو ربما اللذة التي ترمي بالمرأة الوحيدة في جحيم احتراقها الصامت. القراءة الجديدة لهذه اللوحة صَعَقتني. كيف يُمكن فناناً رسَم السماء أن يجدها بحراً؟ لا أعرف أيّ شعور ينتابني. أحاول أن أهرب من تأثير "ألم"، فأمشي بالإتجاه الآخر.

***

أدور بين لوحاتي كفراشة حول ذاتها. أدوخ، فأسند يدي إلى الحائط المُقابل لي. أرفع نظري باتجاه اللوحة المُعلّقة عليه. إنّها لوحة "منتصف العمر" أتذكر حين رسمتها، أقصد لحظة قرّرت أن أرسمها. الفكرة زارتني مباشرة بعد مشاهدتي فيلماً سينمائياً على التلفزيون، عنوانه "كلويه" وأنا

قليلاً ما أشاهد أفلاماً على الشاشة الصغيرة لأنّ متعة هواة السينما لا تكتمل إلا في بحثهم عنها. فالأفلام تفقد بريقها إن هي فُرضت على مشاهدها فرضاً. لهذا اعتدتُ أن أقصد صالات السينما حتى أستمتع بمشاهدة الأفلام، أو أن أختار ما أريد من مكتبة أبي السينمائية التي تحوي تحف السينما العالمية، على أن تدور بعدها حلقات نقاش مع والدي العاشق للفنّ السابع. وهو لم يكن يسمح لأحد بالعبث في مكتبته، أو باستعارة أفلام منها. لكنّ حماستي للفنون والسينما جعلته يمنحني حريّة أخذ ما أشاء منها، وقت ما أشاء، بشرط إعادة الأفلام إلى أمكنتها بحسب الترتيب الأبجدي لأسماء مخرجيها.

إنّه مهووس بالدقّة والأناقة والترتيب، وهو يخاف على مكتبته خوفاً مرضياً. ولهذا كانت تتمنّى أمّي أحياناً لو أنّه يُعطينا من وقته واهتمامه نصف ما يعطيه لمكتبته وجواهرها النفيسة.

حين قرّرت أن أشاهد ذاك الفيلم في التلفزيون، لم يكن إلاّ من أجل بطله "ليام نيسون"، الذي أحبّ فيه وجهه الهادئ ونظراته المتقدّة. فأنا أكثر ما يُغريني في الأفلام أداء الممثل وانفعال جسده وتعابير وجهه. فالممثل يعنيني أكثر من أيّ لقطة إخراجية، مهما بدت عبقرية. وهذه النظرية لا تروق لوالدي البتة، فهو غالباً ما كان يقول لي: "ثمّة أشخاص يقبعون في الظلّ، ولولاهم لما وصل آخرون إلى النور. فاعلمي أنّ وراء كلّ رجل في النور، آخر في الظلّ، وفي معظم الأحيان يفوقه خبرةً وذكاءً ومعرفةً. ووراء كلّ ممثل عظيم مخرج أعظم

الفيلم الذي شاهدته صدفةً يحكي قصة امرأة تعيش أزمة منتصف العمر حتى كادت تلك الأزمة أن تودي بحياتها وحياة عائلتها. مأساة العمر في العبور من الشباب إلى الكهولة ذكّرتني باضطراب انتقالي من الطفولة إلى الشباب.

الفكرة هزّتني من جديد، ومنها استوحيت تيمة هذه اللوحة التي لم أجد لها أجمل من عنوان "منتصف العمر اخترت أن أقدّم هذه الفكرة انطلاقاً من مواجهة بين المرأة والمرآة. وضعيتان للجسد نفسه، في لوحة واحدة.

هذه اللوحة تطلّب مني رسمها وقتاً طويلاً، بحيث قضيت أشهراً في المحترف أرسمها رسماً مزدوجاً، الجسد أولاً ومن ثمّ انعكاس الجسد عبر المرآة. أتأمّل هذه اللوحة وهي مُعلّقة بين لوحات أخرى، فأحسّ أنني رسمتها بضربة واحدة. كأنني نسيت كلّ الجهد الذي صرفته فيها. المرأة واقفة، بيد أنّ جسدها يظهر من الخلف، ووجهها عبر المرآة.

ما ينكشف من جسد المرأة يوحي بأنّه مازال نديّاً، حتى أنّنا لا نعرف أنّها تجاوزت سنّ الشباب وأضحت على مشارف الأربعين من عمرها إلاّ حين نُحدّق في نظراتها التائهة في اللامكان. هي لا تُغازل نفسها عبر المرآة كما تفعل النسوة عادةً، وإنما تبحث عن شيء ما ضائع فيها. عن وجهها القديم أو ربما عن ابتسامة نضرة سرقتها منها الأيام. أحسّ بالحنوّ تجاهها لكأنني أراها لأوّل مرّة في حياتي.

أغرق في تفاصيل اللوحة مثل زائر يحاول فكّ لغزها والبحث عن مقصد الرسّام الذي أبدعها. أيّ انفصام أعيشه أنا؟ أيّ انفصال هذا الذي يجعلني أفقد إحساسي بي كرسّامة ويُحوّلني إلى مجرّد متفرّجة؟

أتفحّص باستغراب نظرة هذه المرأة في لوحتي، فأخاف من أن تُصيبني عدوى أزمتها بالنظر. أحوّل عينيّ صوب اللوحة المُجاورة "طفلان" هما رجل وامرأة يتشاركان السرير نفسه. أحدهما قريب من الآخر إلى حدّ يتداخل فيه الجسدان ويُصبحان جسداً واحداً بوجهين. جسد متكوّم على ذاته كأجساد الأجنّة في بطون أمهاتهم.

الوجهان لا يُعبّران عن شيء إطلاقاً. لا أعرف بماذا يحلمان. هل أحلامهما سعيدة أم مُرعبة؟ إنهما يبدوان كطفلين صغيرين، ومن هنا عنوان اللوحة. أحبّ هذين الوجهين من غير أن أعرف ما إذا كانا يستحقّان هذا الحبّ أم لا فالسلام البادي على وجهيهما قد لا يشي بحقيقتهما. النوم يصبغ الوجوه بالخير ويُحيلها أكثر براءة وقدسية، مع أنّ الشرّ قد يكون مُستفحلا فيها. العينان المُغمضتان تخفيان حقيقة الوجوه. فيهما تختبئ الحكايا والأسرار. فالعينان هما جرحا الوجه. هما الندبتان اللتان تفضحان ذكريات الوجه وتاريخه وأوجاعه. فما أن نغلقهما حتى ينغلق الوجه على ذاته وتندمل الجروح وتنتفي الحقائق، فتستحيل الوجوه واحدة كوجوه الأطفال لحظة الولادة.

لم أقصد هذا المعنى تحديداً وأنا أرسم لوحتي "طفلان"، لكنّ هذا ما أكتشفه الآن، وبالصدفة أيضاً. لا بدّ أنّ شعوراً لاواعياً يتحكّم بريشة الفنان أثناء رسمه، وها أنا ألتمس أفكاراً جديدة لم أكن أكتشفتها في لوحاتي قبل هذا اليوم. إنني أعيد الآن قراءة أعمالي، وأفكاري. وربما قراءة نفسي أيضاً... لكنني كلّما غصت في أعماقي أكثر، كلّما ازداد اغترابي عن نفسي وتقلصت معرفتي بها.

* * *

اللوحات تملأ صالة العرض وأنا أتأمّل كلّ واحدة منها باستغراب كأنما لا أعرف منها سوى توقيعي وعناوينها.

قُبلةٌ مباغتة تسرقني من دهشتي. أعتقد أنّه هو، فأنا لم أتوقّع أن يأتي قبله أحدٌ إلى المعرض. هو أوّل من سيكون حاضراً معي في مثل هذه اللحظة. قلتها لنفسي. لم يُكلّمني منذ الصباح حتى لا يشغلني عن ترتيب أموري. لكنّ الشكّ لم يُساورني لحظةً في أنه سيصل قبل الجميع.

أدير ظهري باتجاه القُبلة التي طُبعت على خدّي لأجد أبي يقف خلفي، وأمّي إلى جانبه. ابتسامتاهما تلتهمان تقاسيم وجهيهما. يبدوان سعيدين كما لم أرهما في حياتي. أإلى هذا الحدّ يظلّ الوالدان يُحبّان ولدهما؟ لم أجرّب هذا الشعور بعد، وإنما أحسّه أحياناً إزاء أعمالي التي تُشعرني بأمومتي. اللوحات هي صغاري الذين يشغلون فكري ليلَ نهار، أضعف أمامهم أحياناً، وأقسو عليهم في أحيان أخرى.

ابتُليت بأمومة فنية مُبكرة وبقصة حبّ عنيفة جعلاني شبه مجنونة، أكاد أمشي وأنا أكلّم نفسي. لا أدري أيّهما السبب في القلق الدائم الذي أعيشه، شغفي بعملي أم شغفي به هو؟ مع أنني فرحت بقدوم والديّ وشقيقتيّ الذين سبقوا كلّ الناس، إلاّ أنني أحسست بخيبة لأنه لم يكن أوّل الحاضرين. أردته إلى جانبي نستقبل زوّار المعرض معاً. كأنّ هذه المناسبة هي في الأساس لكلينا.

كان يُخيّل إليّ أنني سأجده في الصالة هنا قبلي، لكنني وجدت نفسي وحدي، لا اللوحات تؤنسني ولا شيء آخر. "شو هالحلو بابا... أنا متفائل خيراً" اعتقد أبي أنّ هذه الخصلات الظاهرة في مقدّمة شعري لا دلالة لها سوى أنني أتخفّف تدريجاً من فكرة الحجاب. أظنّ أنّ الستايل الجديد في وضع حجابي أعجب أهلي، لا لأنّني أبدو فيه أجمل، وإنما لأنّه يومئ إلى تطور ما في نظرتي إلى الحجاب. لم نتكلّم كثيراً في الأمر. فهم كانوا يتجولون في المعرض ويتأمّلون اللوحات المعلقة في كلّ مكان.

لوحة "إيغو التي رسمت فيها نفسي تسرق انتباه عائلتي. وما من أحد منهم رآها قبل الآن. فأنا رسمتها في المحترف خلال خمسة أيّام فقط، ولم أنتهِ منها إلاّ البارحة مساءً. لم يرَها أحد، ولا حتى هو. هي اللوحة الوحيدة التي لم آخذ فيها رأي أحد. اعتبرتها تحدياً لنفسي ومفاجأة

للآخرين. أنجزتها على عجلة لكنني سعيدة بها. ولا أعتقد أنني كنت سأرسمها أفضل ممّا فعلت، وإن مُنحت سنة إضافية.

فأنا أعلم أنّ لا شيء يُفجّر طاقتي أكثر من العمل تحت وطأة الضغط. أعشق لعبة التحدّي مع الوقت. أحبّ تلك المعارك اللامتكافئة بين الكائن والقدر، بين الإنسان والزمن... شرعت في رسمها وفيّ رغبة عارمة لأن أصرع الوقت مثلما يصرعنا دوماً. بها أرضيت غروراً كامناً فيّ.

* * *

عائلتي لاهية في فرحها بإنجاز ابنتها، وأنا لاهية بأفكاري. أنظر إلى الساعة، وأراقب الباب. لم يأتِ بعد. أخرج من الصالة كي أتصلّ به. أحمل الهاتف بيدي وأحاول الإتصال به. أضغط الرقم الأوّل والثاني والثالث، ثمّ أمحو الأرقام وأغلق الهاتف. أحاول من جديد ثمّ أفشل في أن أطلب الرقم كاملاً. لا أستطيع أن أبادر بالسؤال عنه في يوم ظننته سيكون أوّل الواقفين فيه إلى جانبي.

وأنا مازلت في الخارج، أرى أربعة شبّان، ومعهم فتاة يدخلون إلى الغاليري. كلّ واحد منهم يحمل على كتفه أو بيده آلته الموسيقية. لا أدري من الذي دعاهم. أنظر بارتياب إلى أهلي، فأراهم مبتسمين. "إنها هدية السهرة"، قالت لي شقيقتي الكبرى، وهي عازفة بيانو ماهرة. الفرقة تأخذ مكانها، وشقيقتي تتولّى الإهتمام بها. الزحمة التي أثارها أعضاء الفرقة تزيد من توتري. أحسّ أنّ المدعوين شارفوا على الوصول وهو لم يصل بعد. تأخّر أكثر ممّا يجب.

أخرج من الصالة إلى الباحة الخارجية. أروح وأجيء في المسافة نفسها مثل دجاجة حائرة. أقطب حاجبيّ تارة، وأقضم أظافري تارة

أخرى. خدّاي مجمرّان، أحسّ بحرارتهما. أرفع رأسي الى السماء راجيةً من الله أن يمدني بالقوة والصبر. أرى السماء كأنما تغيّر لونها. الشمس شارفت على الغروب ودخل الليل في النهار، من غير أن يصل، أو حتى أن يتصّل.

زوّار المعرض يتوافدون. عليّ أن أتحكّم بأعصابي قليلاً. المفترض أنني ضليعة بلعب الأدوار وتقمّص الشخصيات. فأنا التي تعيش حياة مزدوجة، لمَ لا أتقمّص دوراً غير الذي أعيشه الآن؟ الخوف والتوتّر ليسا في مصلحتي. أتصنّع الضحكة، أتقدّم نحو الزوّار وأرحب بهم بلطافة مُفبركة. صورته لا تغيب عن ذهني.

لماذا تأخّر؟ لماذا لا يُكلمني؟ ماذا أصابه؟ شعور مخيف ينتابني. إحساس أجهل كنهه يتآكلني. اقترب مني أشخاص ليكلموني، أحاول أن أصغي إليهم، فأسمع كلمات من دون أن أعي معانيها. أفترض أنّهم يُهنئونني على معرضي الأول أو أنهم يثنون على اللوحات. أكتفي بالشكر وأتهرّب من إطالة الأحاديث.

أمشي بين الناس باسمة علّني أخبئ توتري وراء هذه الإبتسامة. المدعوون يتزايدون والتعليق على اللوحات يأخذ شكل نقاشات ثنائية وجماعية. أقاربي، أصدقائي، أساتذتي، زملائي... الكلّ حاضرٌ ومن لا أنتظر غيره وحده الغائب.

أصوات كثيرة تداخلت حتى غدت كموجة واحدة تُشبه هدير البحر. الضوضاء من حولي تزيدني غربة. وكلّما امتلأت الصالة أحسست بفراغ أكبر.

أفتّش عنه بين الوجوه لعلّني أجده، فأفتقده أكثر. ثمّة لغزٌ مُحيّر يملأني رعباً وفزعاً. ولكن لا أريد أن أفكّر بالأمر. ألتفت نحو أهلي كي أستنجد بأحدهم. فأنا لم أعد أحتمل كلّ هذا التوتّر وحدي.

أمي تُرحّب بالناس وشقيقتاي تتنقلان بين المدعوّين، فيما ينشغل والدي بضيوفه. يقف معهم مقابل لوحة "بنات الربيع" أتقدّم نحوه فأراه مأخوذاً بالنقاش حول هذه اللوحة. أسمعهم يربطون بينها وبين الأوضاع السياسية العربية. عنوانها جعلهم يذهبون بعيداً في تحليلهم معتبرين أنّ بنات الثورات العربية هنّ المقصودات في هذه اللوحة. والحقيقة أنّ موضوعها أبعد ما يكون عن ذلك.

كلّ ما فيّ مشلول. أتوه بين أحاديث الناس ومعاني اللوحات وجموح أفكاري. لم أعد أقدر على الوقوف. كلّ ما فيّ مشلول، أمّا مخيلتي فوحدها خصبة. فيها تتولد أفكار غريبة تُقلقني أكثر فأكثر. ماذا حدث؟ ما الذي يُبرّر تأخره وعدم اتصاله؟ هل يُمكن أن يكون قرّر الإنفصال عنّي واختار هذه المناسبة بالذات ليفعلها بي؟ أم أنّ مكروهاً ما أصابه؟! الفكرتان لا أطيق تصورهما. أميل إلى تصديق الأولى. ولكن، لماذا؟ أيّ خطأ ارتكبته بحقّه؟ ماذا حصل في آخر لقاء جمعنا؟ أو ربما في لقائنا الجسدي الأول؟ أتذكّر دهشته، خوفه، كلماته. قال إنني أبدو جميلة جداً بالشعر المتهدّل على كتفيّ، لكنّه لا يبحث عن أجمل امرأة، بل عن المرأة التي يُحبّها. هل كان يقصدني؟ لا أدري. هل انطفأت مشاعره نحوي بعدما رآني أمامه كاشفةً عن جسدي؟ هل تفكّكت الصورة التي كان يرسمها عنّي بمخيلته؟! هل اكتشف أخيراً أنّ حبّه لي لم يكن إلاّ رغبة في كشف غموض جسدي؟ ربما افتقد فيّ ذاك الحياء الغامض الذي يُثير فيه شغفاً إلى امرأة مختلفة. أو ربما عاد إليها... تلك المرأة التي أحبّها ولم ينسَها!.

لا! لا أعرف ماذا أفعل. أيّ وحدة تفترسني وقُربي كلّ هؤلاء الناس؟ إنّ مزيجاً من الخوف والقلق والحنين يُمزقني حتى أكاد لا أوجد في المكان.

هـذا اليـوم كنـت أنتظره بكـلّ مـا فيّ مـن شـوق وحماسـة. ولكـن لا أعرف إن كان القدر يُحرّكني بخيوطه الخفيّة محوّلاً أفراحي إلى عذابات، أم أنّ بي توقاً إلى العذاب بمقدار ما في داخلي من توق إلى السعادة.

الفرقة بدأت عزفها. موسيقى خافتة تسلّلت إلى قلبي فزادته غربةً. صوت الفتاة يُرافق الموسيقى كأنّه آلة إضافية. صوتها شديد النعومة، تحسّ أنّه آتٍ من بلد بعيد.

أتأمّل اللوحات وأصغي إلى الموسيقى وأنا أحبس الدموع في عينيّ. النغم العذب وصوت الفتاة المُرافق له أخرجا من روحي مشاعر لم أحسّها يوماً.

أتنقّل بين الناس والمعارف والضيوف، أحاول أن ألتقط انطباعاتهم، وأشارك في أحاديثهم، مع أنّني أشعر بوهن شديد.

أنضمّ إلى حلقة يجتمع فيها عدد من أساتذتي وزملائي. "أتدركين مـاذا فعلـت أنـت؟ هـذا لـيس بـالمعرض الأوّل، إنمـا يستحقّ أن يكـون معرضك الأخير

ما سمعته الآن من أستاذي "ط. أ" يكفيني لأكون أكثر نساء العالم سعادة. لم يكن يهمني رأي أحد من الحاضرين بمقدار ما يهمني رأيه. قضيت ليالي أتخيّله يقول لي مثل هذا الكلام. إنه واحد من أهم الرسامين وأكثرهم جديّة. فهو لا يُجامل أحداً في الفنّ. وهو طالما قال لي مذ كنت في الجامعة إنّه لم يرَ فناناً يرسم الجسد بالبراءة والعفوية والعمق، كما أرسمه أنـا. ومـا قالـه لي الآن أحـدث في قلبـي رعـدة جميلـة، لكنـه لم يمنحـني السعادة التي توقعتها.

"أنت رسامة سكيزوفرينية، ترسم الأجساد العارية وتحجب جسدها عـن الاخـرين. فرويـد نفسـه يعجـز عـن تحليـل شخصيتك" إنّهـا كلمـات أستاذي "خ. ن"، وقد أدخلت الموجودين معه في نوبة من الضحك. لا

أدري إن كانت كلماته فعلاً تستحقّ كلّ هذا الضحك. هذا الأستاذ كان يُدرّسنا مادة "رسم الطبيعة"، ولا أنسى الحادثة التي حصلت بيننا في أوّل يوم أتيت فيه إلى الجامعة مُحجبة، وصُعق لرؤيتي وأنا أضع الحجاب على رأسي، فحاول جاهداً أن يُقنعني بضرورة التخلّي عن هذا الحجاب الذي لا يليق بفنانة موهوبة مثلي.

كان يُكلّمني حينها وهو ينظر في عينيّ، كأنه يؤنّبني. كأنّه يذكرني بالمجد الذي كان ينتظرني لولا هذه "الشائبة" التي جلبتها لنفسي. لم أستطع يومذاك أن أخفي غيظي وحنقي وخوفي. أحسست برغبة عارمة في أن أوضح له حقيقةَ ما. فأجبته بصوت مُنفعِل: "لم يكن المطلوب يوماً من الفنان أن يكشف النقاب عن سرّ جسده. بل عن سرّ الطبيعة والكون، وذاك ينطوي في ذاته"

خفت يومها أن أكون قد أنهيت علاقة جميلة ومفيدة مع أستاذ رائع طالما نعتني ب"الفنانة"، ولكن ما إن خرجنا من القاعة حتى وجدته يدنو مني. كان يبتسم لي وعيناه تبرقان. اقترب مني وكأنه أراد أن يُقبلني على خدّي. لم يفعلها طبعاً، لكنّه رَبَت على كتفي، وأردف حركته الدافئة بجملة لم أنسَها يوماً: "ستكونين فنانة ذات شأن، حتى لو تنسّكت في جبل بعيد من غير أن يرى طيفك أحد

ربما أحسّ حينها أنّ الفنّ يجري في داخلي. وأنني أفهم الحقيقة التي لا يفهمها الفنانون عادة إلا بعد سنوات طويلة. وجدني مؤمنة بذاتي وبما أخفيه في قلبي. فاجتاز مرحلة "الشكليات" وقَبِلَني كما أنا. وها هو اليوم موجود بين المدعوّين سعيداً بإنجاز طالبة توقّع لها هذا النجاح.

* * *

هم يضحكون وأنا أوهمهم بأنني أضحك معهم. ألتفت خلفي، فتُطالعني لوحة "قناع" تلك اللوحة كانت التحدّي الأكبر في حياتي. رسمتها أثناء التحضير لمعرض التخرّج "ألف وجه ووجه" كان من المفترض أن يرسم كلّ واحد منا وجهه بأسلوب أحد الفنانين الكبار. فاخترتُ الرسامة المكسيكية فريدا كاهلو، وقررتُ أن أرسم وجهي بأسلوبها الذي يُقارب السوريالية. اختيار الفنانة الجريئة فريدا شكّل مفاجأة بالنسبة إلى أساتذتي وزملائي. والسؤال نفسه ظلّ يُلازمني طوال فترة المعرض "هل سترسمين وجهك من دون شعر؟" لم أكن أجيب. كنت أكتفي بابتسامة، وأعود إلى غرفتي لأستكمل رسم لوحتي. وفي يوم المعرض، كان الجميع متشوّقاً لرؤية "وجهي"، وما إذا كنت رسمته بشعر أم بحجاب. وما إن رفعت الغطاء عن لوحتي حتى عَلَت الأصوات بعبارات الدهشة والإعجاب. حينما شرعت بالرسم، أردت أن أبتعد عن المسألة التي تهمّ الناس، فاخترت أن أرسم وجهي، على طبيعته، تماماً كأسلوب "فريدا" في رسم وجهها. وبدلاً من شعري الطويل، رسمت أعدادا كبيرة من الفراشات الطائرة، وكأنّها خصلات شعري يتلاعب بها الهواء. كانت هذه اللوحة مفاجأة المعرض، وبفضلها حصلت على العلامة الأعلى بين زملائي، وفزت عنها بمرتبة الشرف. ما الذي أعادني إلى الوراء هكذا؟ لا أعرف إن كنت أهرب من غيابه بمثل هذه الذكريات.

أشخاص لا أعرفهم حاضرون هنا. "ما أجملها!"، "أحببت هذه اللوحة" تعليقات أسمعها من هنا وهناك، لكنني لا أفرح بها، إطلاقاً. عليّ أن أكون أكثر سروراً لكنني عاجزة عن السيطرة على مشاعري.

* * *

أفكاري تحوم حول رأسي كخفافيش مذعورة. عيناي لا تنفكّان تراقبان مدخل الغاليري، ثمّ إذا بي أبصره داخلاً بإطلالته الساحرة وابتسامته المواربة. دهشتي لمرآه أعادت إليّ الأمل وجعلتني أنسى سبب تأخرّه. يبدو وسيماً ببدلته الرمادية وقميصه الأزرق. أحسّ برغبة قوية في أن أركض نحوه وأعانقه. يدخل القاعة وهو يحمل باقة من الورد الجوري. أتعاف فجأة من الصدوع التي خلّفها غيابه فيّ. أحسّ كأنما الأرض أزهرت تحت قدميّ. أتأكّد الآن من أنّ الإنسان لا يعيش معنى الفرح إلاّ حينما يتفادى حزناً كاد أن يقع. فالسعادة أحياناً هي النجاة من مأساة محتمة. وأنا، بعدما كدت أيأس من فكرة مجيئه، أراه أمامي.

أتجّه نحوه، وهو نحوي. يقدّم لي الباقة بيدين مرتعشتين، ويكتفي بابتسامة صغيرة. كأنّ اللوك الجديد لم يعجبه. يتأمّل الغرّة المنزلقة من تحت المنديل وهو يقطب حاجبيه بطريقة عصبية. لا شكّ أنّه يغار عليّ فعلاً. فالشاب المودرن أعجبته ربما فكرة أن يكون له امرأته الخاصة، وبات من الصعب عليه أن يتقبّل إطلاع غيره من الرجال على القليل من مفاتنها الأنثوية.

لا يهمني شيء الآن، المهمّ أنّه جاء. أنظر مِن حولي لكي أتأكّد من أنّ الجميع يرانا معاً. ولكن... ها هي نفسها فتاة المقهى تدخل وراءه. أغمض عينيّ ثمّ أفتحهما، لا أصدّق ما أراه. إنّها هي، بشعرها الأسود الكثيف وبشرتها الذهبية وشفتيها المنتفختين... ما الذي أتى بها إلى هنا؟

أضع يديّ على رأسي وأفرك جبيني، كأنني أطرد هلوسات تسكن عقلي. أيّ هلوسات؟ إنّها أمامي بشحمها ولحمها. تبتسم لي، وتتقدّم نحوي. أسند يدي على الحائط وأتنفّس بسرعة قصوى. أعرف أنني أتصرّف بغباء، ولا ينبغي أن أبدو ضعيفة إلى هذا الحدّ. لكنني لا أحتمل

هذا المشهد. أدير وجهي نحوه وأغرز عينيّ في عينيه، كأنّهما رمحان حادّان. تقترب منّي وتمدّ يدها لمصافحتي. الغريمة اللئيمة تأتي إلى عقر داري لتستفزني. تتجمّد أصابع كفّي، فتغدو مصافحتها أمراً صعباً للغاية. أمدّ يدي رغماً عنّي. تفتح فمها المطّاطي لتُكلمني: "مبروك المعرض والخطوبة" إنّها تُسلّم عليّ وتسألني عن أحوالي وتبارك لي كأنّها صديقة قديمة... "أعشق الرسم وأهوى جمع اللوحات، سوف أجول في المعرض لأرى إن كنتُ سأقتني واحدة من لوحاتك" أهزّ برأسي بينما تتقّد عيناي ناراً. "ما أغباكِ!"، أتمتم بيني وبين نفسي...

ماذا جاء بها إلى هنا؟ هل هي مجرّد صدفة؟ أم أنّها خطّة مُدبرّة لكي تفسد عليّ فرحتي؟ وماذا عن وجودها في المقهى البحري ذاك اليوم، هل كان صدفة أيضاً؟ لا، طبعاً لا الدم يغلي في عروقي. لماذا تأخّر ودخل قبلها بدقائق؟ أحاول أن أقنع نفسي بأيّ حجة واهية لعلّني أمنع نفسي من الإنهيار أمام هذا الجمع من الناس. لا أدري إن كان دعاها عن قصد لكي يتباهى بي أمامها، أنا حبيبته الفنانة الصغيرة. أو ربما ترافقه الآن كصديقة قديمة له. ولكن أيّ حماقة هذه؟ إنني أداري خيبتي بذرائع سخيفة. لا أجد ما أُقنع نفسي به. ذقت ضروباً كثيرة في حياتي لكنني لم أعرف ضرباً لئيماً كهذا.

رجلاي ترتجفان، ولست قادرة على الوقوف. لا أحتمل أن أصبر أكثر حتى أعرف السبب الذي جعله يتأخّر في هذا اليوم المهمّ في حياتي... هل سيُخبرني بأنّه ما عاد يُريدني؟ أو أنّ مشاعره جفّت بعدما اكتشفني... بلا حجاب؟ أم أنّه لم يتمكّن من مقاومة إغواء المرأة الجميلة التي كان يعشقها؟

عليّ أن أتروّى... ربما كلّ ما أنا فيه الآن ليس سوى أوهام كالتي اعتدتُ أن أجلد نفسي بسياطها.

الكلّ هادئ، وأنا وحدي على فوهة بركان. إنّها بجانبي تتفرّج على اللوحات، بينما يتأمّل هو لوحة "زهرة وحشية" باستغراب. يقترب منها حتى يراها عن كثب. إنّها معلقة هناك. بطلتها كما معظم بطلات لوحاتي، واحدة من الكائنات اللواتي لا ينتبه لهنّ أحد. هي من اللواتي يعشن في عوالمهن الداخلية، في ظلّ الحياة وليس تحت نورها.

تقاسيم وجهها غير واضحة، وهكذا أيضاً بالنسبة إلى بقيّة تفاصيل جسدها. إلاّ أنّ انطباعاً تتركه لدى من يراها بأنّها طفلة. حركة جسدها توحي بأنّ ثمّة ما يؤرق نومها. أهي الرغبة التي افترست مضجعها و"وحّشتها"؟ يلتفت نحوي وكأنّه يسأل نفسه هذا السؤال.

الموسيقى تُضفي على الصالة أجواءً حميمة. اللوحات أضحت لها معانٍ أخرى. لا أعرف لماذا غدت الأجساد أكثر إروسية!... أكاد أجنّ. ألا يُمكن أحداً أن يكسر مفاهيم الجنس التي تُطوّق الجسد أينما وُجد.

نظراته توجّه إليّ اتهاماً فاضحاً. أظنّه اكتشف "فصاميتي" فجأة، ولم يعد يفهمني. أيّ امرأة أنا؟ المحجبة الغامضة أم المتحرّرة التي ترسم نسوة شبه عاريات؟ من حقّه أن يعرف أيّ امرأة ارتبط بها! لا ينبغي أن ألومه على هذا الضياع. فأنا نفسي ضائعة في دوّامة ذاتي التي غدت أكثر تعقيداً من خيوط عنكبوت.

أمّا هي، فتتأمّل لوحة "طفلان" أدقّق في نظراتها الفارغة. أحاول أن أخفي ابتسامتي، فلا شكّ أنّها عاجزة عن فهم هذه اللوحة. ويبدو أنّ ظنّي في محلّه، ها هي تقترب منّي وتطلب أن أشرح لها المعنى المُضمر خلف اللوحة وعنوانها. تتعاطى معي بلطف مُفتعل، كأنّها لم تُسبّب لي أيّ أذى منذ لحظة وصولها إلى هنا. لا أصدّق أنّ هذه هي المرأة نفسها التي كانت تستفزّني ذاك اليوم في المقهى. ما الذي

حصل لكي تتودّد إليّ بعدما كانت تتجاهلني بكلّ خبثٍ ولؤم؟ لا شكّ أنّها تمكنّت من استعادته وتحاول الآن أن تتقرّب مني حتى لا أشكّ بها؟

تسألني بهدوء عمّا أقصده، لكنّ الكلمات تعلق في حنجرتي. وكيف يُمكن للمخنوق أن يتكلّم؟ أنظر إليه وهو يقف بجانبي، فيُحرّك حاجبيه كأنّه يقول لي هيّا. من أين جاء بكلّ هذه الخفّة؟ ألا يعرف حجم الإهانة التي سبّبها لي؟ أرفع يدي رغماً عنّي وأحكي بصعوبة عن اللوحة. أتكلّم بصوت غير صوتي. روحي أخذت تضعف. أظنّه يُدرك الآن أنني على وشك الإنهيار. يُطأطئ رأسه أرضاً، وأنا أمرّر لساني حول شفتيّ اللتين جفتّا من شدّة التوتّر.

الحاضرون ينصتون إلى الموسيقى ويتأمّلون اللوحات ويبتسمون، وأنا على حافة البكاء. يحتفلون بي وأنا أشفق على حالي. لا سعادتي تشبه السعادة، ولا حزني يُشبه الحزن. وما عدتُ أعرف أصلاً متى أكون حزينة أو سعيدة. وما عاد يهمني أن أعرف. لماذا يتصرفان بهذه الطبيعية كأنهما لم يفعلا شيئاً.

الجميع هادئ كأنّهم تحت تأثير مخدّر ما، وفيّ وحدي تشتعل نار لا تُطفأ. مازالت تقف إلى جانبي، تُنقّل نظراتها من لوحة إلى أخرى. أدير وجهي نحوه، فأرى عينيه تتجهان نحوي، أو ربما نحونا. يتأمّلنا كأنّه محتارٌ بيننا. لا يريد أن يخسرني. أو ربما يخسرها. أحتاج أن أبتعد عن هذا الجوّ المُستفّز قبل أن أسقط. أنا جدّ متعبة ولم أعد قادرة على تحمّل هذه المواقف الغريبة التي تحدث معي. لا قدرة لي على تحمّل موقف يستنزف كلّ قوّتي...!

لو أهرب من هنا. لكنّ المشكلة ليست في المكان، بل فيّ أنا. ولماذا أهرب، أنا التي اعتدتُ أن أواجه كلّ شيء بعناد وإصرار؟ لماذا لا أكون

أشدّ صلابة؟ أنا فعلاً مستاءة من موقفي البارد هذا، ومن خوفي، ومن صمتي. لماذا لا أطردهما أمام الناس جميعاً! لماذا لا أنفصل عنه بعد هذا الموقف المُحرج الذي حشرني فيه. أفكار وكلمات كثيرة تغزو ذهني، وسأواجهه بها. لن أسمح للإرهاق أن يضعفني أكثر، سوف أضع النقاط على الحروف وأحسم المسألة.

عليّ أن أسأله الآن عن سبب تأخرّه، وعن سرّ مجيئها معه... عليه أن يعترف بالحقيقة كاملة. ماذا جرى بينهما وما مصير علاقتنا بعد عودتها إليه. لن أضعف أمامه، عليه أن يكون واضحاً معي. لن أقبل بجواب مُلتبس كما في كلّ مرّة. الناس هنا يتأملّون اللوحات، ولا يلحظون غيابي. غيابي الذهني عنهم. هم لا يشعرون بحجم التوتّر الذي يسري كرعشات كهربائية داخل عروقي. الآن أصبحت شخوصي التي ابتدعتها أهمّ منّي، وأجمل منّي.

أتنفّس بقوة لعلّني أزيح تلك الصخرة الضاغطة فوق صدري.

ألاحقها بنظراتي بينما شفتاي تُتمتمان: "إلاّ هذه، لم أجد مبرّراً لوجودها!...

يعود الشكّ ليتلاعب بأعصابي. لا أعرف إن كانت الظروف هي ما يُعاكسني ويُلهب صدري أم أنني أنا المرأة التي تهوى العيش كجمرة تلتهم نفسها، فأقوم كلّ يوم لأجد أنّ تناقضاتي أضحت أكثر عنفاً وآلامي أشدّ حدّة.

لن أقف صامتة وأنا أراها أمامي. سوف أطردها الآن من حياتنا. لن أسمح لها بأن تنتصر عليّ، وأن تهدم ما بنيته.

أتقدّم نحوه بوجه أخاله لا يُشبه وجهي البتّة. آخذ بيده بهدوء، وارميها بابتسلمة خفيفة، ثم أقوده نحو الباب. لكنّها تلحق بنا بخطوات

متعجلة. فتضع يداً على كتفي ويدها الثانية على كتفه وتقول: "Sorry. عليّ أن أغادر الآن لأنني مرتبطة بموعد عشاء. أحببتُ المعرض وسوف نتحدّث لاحقاً في شأن اللوحات. أبارك لكما مرّة أخرى المعرض والخطوبة" تنطق هذه الكلمات بلكنة إنكليزية، فيخرج حرف الراء من فمها مدغماً. وتحرّك يدها مودّعة قبل أن تخرج.

"عليّ أن أوصلها إلى السيارة. سأعود فوراً حبيبتي لا ينتظر منّي جواباً. يلحق بها. يخرجان من الصالة وأنا أخرج من نفسي. أقف وحدي وسط الصالة كتمثال شمع يذوب. أراقبهما وهما يقفان في الباحة الخارجية. يغلب عليهما الرضا، كأنهما سعيدان بما يُلحقانه بي من أذى. لا أعرف ماذا أفعل. أضع يدي على رأسي فتطالعني الغرّة المتدلية بسذاجة فوق جبهتي. ها هو يعود إلى الصالة، فأدير ظهري له وأتجه نحو الحمّام في آخر الغاليري.

أيّ موقف مُذلّ هذا الذي وضعني فيه؟ أقف أمام المرآة الكبيرة كمومياء بلا لون. أتلمّس الغرّة بأصابع يدي المتجمدة. ثمّ أرفعها عن وجهي بحركة عصبية. أكره هيئتي. أخلع المنديل لأعقد الغرّة مع شعري، وألفه حول رأسي بإحكام، بعد إخفاء الغرّة تحته.

التخفّف من الحجاب لم يُخفّف أزمتي، والخصلات المتدلية على وجهي لم تُهدّئ أعصابي. أشبك أصابعي لكي أفرقعها، فلا أقدر. قد يكون عليّ أن أتخلّص من الخاتم الذي يعصر إصبعي، لعلّني أتخلّص من توتري. أحدّق في خاتم السوليتير الذي يُضيء إصبعي، هذا الخاتم الذي أهداني إيّاه بعد زيارة والديه الرسمية لنا. لم يُلبسني إيّاه أمام عائلتينا. بل قصدنا البحر في اليوم التالي عند الغروب، وكان الطقس يومها ماطراً. كنّا وحدنا نتمشّى بجانب البحر. ولمّا اشتدّ المطر، هرعنا نحو صخرة كبيرة، احتمينا بها. هناك، وعلى صوت الرعد الساخط أخذ الخاتم من جيبه،

ووضعه في إصبعي، وقبّله طويلاً. كانت المرّة الأولى التي يُقبّل فيها أحدٌ إصبعي، ولم أكن أعرف أنّ قبلة الأصبع ممكن أن تُثير المرأة إلى هذا الحدّ.

مازلت أضغط على الخاتم ولا أعرف ما الذي يجدر بي فعله. أحرّكه، أديره بإبهامي، أرفعه ومن ثمّ أضعه في مكانه. ألعب به كما لو أنني ألعب بمصيري. أنزعه، ثمّ أدفنه في باطن يدي، وأخرج. أخرج ممتلئة بتصميمي على إنهاء هذه المهزلة التي فرضها عليّ في يوم من أهم أيام حياتي. لن أسمعه. قد يخترع ألف سبب يُبرّر تأخرّه، وألف سبب يُبرّر مجيئها. لن أدعه يسحر عقلي كما سحر عينيّ حين أحببته.

أراقبه من بعيد. أراه بين أشخاص لا أستطيع أن أميّزهم. أظنّ أبي واحداً منهم. أتنفّس بقوّة كأنني أتنشّق حياة جديدة. أقترب منه، وأقوده إلى الطرف الآخر من الصالة.

ومن دون أن أنطق بكلمة، أمسكت بكفّه ودسَسْتُ الخاتم فيها. وبحيث توقعت أن يُفاجئه ذلك، نظر إليّ ببرود، ثمّ أعاد الخاتم إلى إصبعي، وشدّه بقوّة إلى أسفل كأنّه يغرسه في يدي. راح يعبث به بأصابعه الناعمة، فوجدتُ نفسي في موقف لا أدري فيه ماذا أفعل. إنّه يُثيرني بلمساته، وأنا في ذروة تخبطي.

أحاول أن أتكلّم، لكنّ الكلمات تخذلني مرّة أخرى. وفي أوج صمتنا، ترتطم نظراته الملتهبة بنظراتي التائهة، فيُمسك بيدي من جديد. وفي محاولة منّي للقيام بخطوة أخيرة، والنطق بما في داخلي من ثورة وغضب، يُفاجئني بأن ينحني عليّ ويضع إصبعه على فمي، ثمّ يُطوّق خصري بذراعه اليُسرى، ويمضي بي إلى الحديقة في الخارج.

الحديقة غارقة في الظلام، والقمر الذي حجبته غيمة كبيرة يبعثُ ضوءاً شاحباً كضوء النيون. نمشي صامتين، وهو يشدّني إليه أكثر فأكثر

كلّما تقدّمنا إلى أمام. أحاول أن أتوقّف، فلا أقوى على ذلك. أحاول أن أنطق ولو بكلمة واحدة، فأشعر بما يُشبه الخَرَس.

الدموع تتساقط من عينيّ، من دون شعور بالحزن أو الفرح.

إننا نتوغّل في الظلمة بين الأشجار، وكأننا نسير في نفق.

نسير معاً، لا أدري إلى أين...

بوركيني

مايا الحاج

- كاتبة وناقدة أدبية. تعمل في القسم الثقافي في جريدة «الحياة» اللندنية وفي مجلة «لها» منذ العام 2008. حاصلة على دبلوم دراسات عليا في الأدب الفرنسي من الجامعة اللبنانية في بيروت. هذه روايتها الأولى.

امرأتان تتقاسمانني. عندما أملّ إحداهما، أقتلها وأتمسّك بالأخرى. طاقة العنف التي في داخلي أجد لها منفذاً. أسيّلها عبر قتل يومي لواحدة من «الإمرأتين»...

نظراته توجّه إليّ اتهاماً فاضحاً. أظنّه اكتشف «فصاميتي» فجأة، ولم يعد يفهمني. أيّ امرأة أنا؟ المحجبة الغامضة أم الفنانة المتحرّرة؟ من حقّه أن يعرف أيّ امرأة أحبّها وارتبط بها! لا ينبغي أن ألومه على هذا الضياع. فأنا نفسي ضائعة في دوّامة ذاتي التي غدت أكثر تعقيداً من خيوط عنكبوت...

لا أدري إن كان يُحدّق في وجهي أم في جسدي، أم فيّ كلّي. نظراته ثابتة في مكان ما، لكنني غير قادرة على تحديده. الموقف يخجلني ويزيد من اضطرابي. أبتسم له. أمدّ يدي بحركة أدعوه فيها للدخول، ومن ثمّ أغلق الباب بهدوء...

• لوحة الغلاف والتصميم للفنانة مايا حيدر

ISBN: 978-614-02-1071-4

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAFPUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com